



سلسلة الفكر

ظاهرة الدعاة الجدد

وائل لطفي

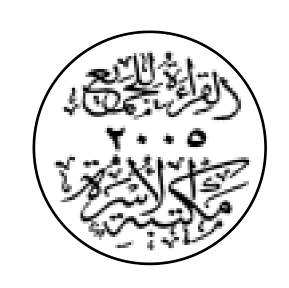


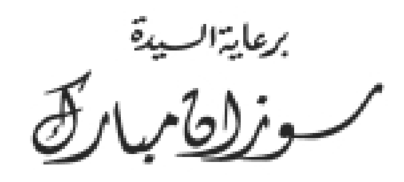
ظاهرة الدعاة الجدد

تحليل اجتماعى

الدعوة .. الثروة .. الشهرة

وائل لطفى





الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

ماجدة عبد العليم

تصدير

مَنْ هم الدعاة الجدد؟! وفيم يختلفون عن غيرهم من الدعاة الأزهريين الذين نعرفهم جميعًا؟! وما الموضوعات التى يطرحونها؟! وهل أصبح ظهورهم المطَّرد يشكل ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل؟!

يحاول هذا الكتاب أن يقدم لنا إجابات شافية، وأن يحدد تعريفات جامعة لهذه الظاهرة، التى طرأت على المجتمع المصرى فى الآونة الأخيرة، واستطاعت أن تفرض نفسها على الساحة نظرًا لاطِّرادها؛ إذ إن أولئك «الدعاة الجدد».. استغلوا جميع الوسائل المتاحة لنشر أفكارهم، وتمكنوا من التعامل مع أدوات الحداثة ومنجزات التكنولوجيا الحديثة، ومع نتائج العولمة على المستوى الاتصالى والمعرفى، فتوغلوا فى الفضائيات ومواقع الإنترنت.

والمؤلف فى هذا الكتاب يحاول أن يرصد ويحلل تلك الظاهرة، ويؤكد على أن هؤلاء الدعاة الجدد يختلفون شكلاً ومضمونًا عن أولئك الدعاة التقليديين؛ فلا يلتزمون بزيهم التقليدى، ولا بلغة الخطاب التراثية القديمة، ولا بالموضوعات ـ التى يصفها المؤلف ـ بأنها «قد تهم المتحدث أكثر مما تهم السامع». كما أن المؤلف وهو يرصد هذه الظاهرة يؤكد على أنهم (أى الدعاة الجدد) دعاة أخلاقيون فى المقام الأول، يتبنون فكرة الإصلاح من أجل المجتمع؛ لأنهم يهدفون ـ كما يشير المؤلف ـ للوصول إلى مجتمع متدين، دون مخاطرة الانضمام لجماعة من الجماعات ودون التصدى لما هو سائد أو العداء معه (أى أنهم يتحمسون لفكرة الإسلام الاجتماعى، وليس السياسى)، وأنهم يقدمون دروسهم بأسلوب جديد، يعتمد على الإلقاء بطريقة درامية متميزة تصل بالمتلقين إلى درجة عالية من المتعة والتشويق.

ومكتبة الأسرة تقدم هذه الدراسة التحليلية لهذه الظاهرة الجديدة فى طبعتها الأولى، لكاتب صحفى لامع التزم الحيدة والموضوعية إلى حد كبير، إذ أنه لا يؤيد ولا يهاجم هذه الظاهرة، إنما يرصدها ويتتبع اطّرادها، ويدلى بدلوه فيها اعتمادًا على ما أورده فى هذا الكتاب من لقاءات ومحاورات أجرى مع معظم رموز هذه الظاهرة.

مكتبة الأسرة

مقدمة

فى صيف عام ٢٠٠٠ عرفت مجموعة من المقالات طريقها للنشر على صفحات مجلة روز اليوسف.. كان موضوع المقالات «داعية شاب جديد» كان وقتها.. عمرو خالد. ولم تكن معالجة الموضوعات ذات الصلة بالشأن الدينى.. أو بشخوص الدعاة الدينيين أمرًا جديدًا على «روز اليوسف».. كان الداعية جديدًا.. وكان جمهوره أيضًا جديدًا.. وكان خطابه.. مثل جمهوره جديداً أيضًا. كان الداعى للدهشة ليس فقط مظهر الداعية المختلف عن رجال الدين التقليديين، ولا طريقته السهلة إلى حد التفريط والعملية إلى حد الإفراط، ولا العبارات التى تحث الشبان على جمع مزيد من الثروة كى يكونوا مسلمين صالحين. ولا الجمهور الذى يشى مظهره بأنه ينتمى إلى الفئات الاجتماعية الأعلى

والفئات العمرية الأصغر فى المجتمع المصرى.. كان هناك شىء أكثر من هذا.. خطاب يقوم على تسويق الدين كحل جيد.. ووسيلة فضلى للحياة.

مع النشر.. كان هناك عدة مؤشرات أولها ارتفاع ملحوظ فى التوزيع وهو ما يعنى أن للظاهرة جمهورًا أكبر مما يقدر البعض أو يتخيل البعض الآخر. وكان ثانيها هو أن مجموعة من كبار رجال الأعمال تحمسوا بدافع التأييد للظاهرة.. (لم يكن النشر فى روزاليوسف بمثابة ميلاد لظاهرة الدعوة الجديدة فى مصر لكنه كان فقط إعلانًا عن ميلاد ظاهرة أصغر تكونت فى رحم الحركة الإسلامية منذ بدايات التسعينيات.. هل يمكن أن نقول منذ بداية تطبيق سياسات التكيف الهيكلى ١٩٩١؟!).

والذى حدث أيضًا أن الإعلان عن الميلاد انتقل من طور الدهشة والصراخ إلى محاولة التأمل والفهم.. وكانت مصطلحات مثل «الدعاة الجُدد»، و«الدعوة الجديدة» بمثابة اختراعات أيضًا جديدة وقتها.. ومع الشهور التالية بدا لمن يهتم أن هناك ظاهرة تتشكل.. فهناك دعاة متشابهون فى أشياء عدة: طبيعة التعليم، ومضمون الخطاب، ولغة الخطاب، وطبيعة الجمهور، والمراكز التى انتقلوا منها لعالم الدعوة، والعلاقات برجال الأعمال، والوسائط وثيقة الصلة بعصر العولمة والتى كانت بمثابة بساط الريح الذى حمل الدعاة الجدد إلى آفاق غير مسبوقة من التأثير سواء من ناحية أعداد الجمهور أو تنوعه عبر أنحاء الوطن العربى والعالم

الخارجى. وبدا أن وسائط مثل مواقع الإنترنت، والقنوات الفضائية لا تضمن فقط جمهورًا كثيفًا. ولكن تضمن أيضاً جمهورًا متميزًا من حيث المستوى الاقتصادى، والاجتماعى. ومع الدعاة الجدد الذين تعددت أسماؤهم ومواقعهم. كان هناك تفاصيل مختلفة فى الصورة الواحدة كان هناك فِرَق الموسيقى الإسلامية والمواقع الإسلامية. الاجتماعية على شبكة الإنترنت، والأطباء النفسيون الذين يقدمون لآلاف المراهقين إرشادات عن الحب والحياة ومشاكل العذرية والجمع بين حبيين على خلفية إسلامية. كانت التفاصيل تقول أن الظاهرة الإسلامية تدخل بقوة ونجاح إلى مرحلة ما بعد السياسة، ولم يكن من الممكن تجاهل نهاية عصر العنف مع إطلاق مبادرة وقف العنف على يد أمراء الجماعة الإسلامية عام ١٩٩٨، ولم يكن من الممكن إغفال التطورات التى تمر بها الطبقات الجديدة فى مصر.. ومحاولتها الدءوبة للبحث عن شرعية ما.. وعن مشروع ما؟ ولم يكن أيضًا من الممكن إغفال شيوع مفاهيم مثل الإيمان الفردى.. وتنمية الذات والقدرات كسبيل للوصول إلى رضا الله. وبدا لى أن الظاهرة كبيرة ومتشعبة وأنها تحتاج لمزيد من التأمل والدراسة. ولعل السؤال الأهم لدَىَّ كان عن علاقة الماضى بالمستقبل.. هل يحقق «الاجتماعى» ما عجز «السياسى» عن تحقيقه؟ وهل يحقق الإصلاحى والمسالم ما عجز الثورى والعنيف عن تحقيقه؟ ثم ما علاقة هذا كله بجماعة الإخوان المسلمين؟ وبدا لى أن العلاقة موجودة.. لكنها أيضاً مركبة بدرجة لا يمكن معها الإجابة بنعم أو لا.

ويبقى فى النهاية أننى مدين بالشكر لأطراف عدة.. وبالترتيب الزمنى فإنى مدينٌ بالشكر لزملاء كبار أقدر عمق علاقاتهم تطوعوا عارضين إمدادى بملفات عما تخيلوه خطايا وفضائح شخصية لبعض الدعاة، وكان أن رفضت شاكرًا ومقدرًا، وكان رأيى أنه من السهل معرفة ما يجرى.. لكن الأصعب كان الإجابة عن السؤال.. لماذا يجرى ما يجرى؟.. ما الذى تغير فى المجتمع وطبيعة الدعوة. ودور رجال الدين؟ وأعتقد أننى حاولت مخلصًا أن أفهم متسلحًا بالموضوعية قدر ما أستطيع. وأبقى أيضًا مدينًا بالشكر لناشرين تحمسوا لفكرة كتابى هذا وقدموا عروضًا سخية مقترحين أيضًا إضافة بعض الفضائح.. أو ما يوحى بها.. إن لم يكن فى متن الكتاب.. ففى عنوانه، قائلين إنه لا أمل يرجى فى توزيع ضخم لكتاب لا يؤيد الدعاة الجدد ولا يهاجمهم أيضًا.. ولم يكن ذلك طريقى أو طريقتى.. ويبقى أننى مدين بالشكر لبعض الباحثين الأجانب الذين قادتنى مصادفة ترجمة ما كتبوا لأن أرى كثيرًا مما كتبته حول الموضوع متضمناً بشكل كامل فيما كتبوا.. وكان التشابه بدرجة تطابق الحافر على الحافر كما يقول محكمو السرقات الفكرية.. ولا أحسب أننى أتكلف حين أوجه لهم الشكر فقد نبهنى ما حدث لأهمية تناول الموضوع بشكل أكثر هدوءًا.. وأكثر عمقًا.. أما المبرر الثانى للشكر فهو أننى تلقيت عروضًا من بعض هؤلاء الباحثين.. لكى أسهم فيما يكتبون.. ولم أعتبر العروض كريمة.. ولم أعتبر أننى أليق بها أو أنها تليق بى.. ومع الشكر كان هناك الدهشة من كل هذا الاهتمام بالظاهرة من قبل مراكز البحوث الأجنبية، وكل هذا اللا اهتمام من مراكز البحوث المصرية.

ويبقى فى النهاية أن أسجل اعتقادى بأنه لا توجد أفكار صحيحة وأفكار خاطئة.. فقط توجد فكرة تلائم عقلى وأخرى لا تلائمه، ويبقى أيضًا أن أسجل احترامى لاختيارات الآخرين مادامت فيها سعادة أرواحهم.. طالبًا منهم أيضًا أن يحاولوا احترام أفكار وخيارات من يخالفونهم فى الرأى.. وهو ما أعتقد أنه لو تحقق سيضمن لهذا الوطن مستقبلاً أفضل.

وائل لطفى

القصر العينى

٢٠٠٥/٢/٢٢

تفاصيل فى مشهد واحد

لعل المتأمل للمشهد الدينى الإسلامى فى مصر حاليًا يقف بدهشة مبالغ فيها أمام المشهد الكلى. وأمام التفاصيل أيضًا. فى صدارة المشهد يبدو الدعاة الجدد كأهم ظاهرة إسلامية يشهدها المجتمع المصرى حاليًا بعد انحسار نشاط التنظيمات الراديكالية العنيفة ومراجعاتها الفكرية التى أعلنت فيها عن تخليها عن العنف كوسيلة لتغيير المجتمع. وفى ضوء حالة من الركود يشهدها المجتمع على مستويات السياسة والاقتصاد والمجتمع المدنى أيضًا، وفى ضوء حالة الحصار المفروضة على جماعة الإخوان المسلمين باعتبارها جماعة تفتقر للشرعية على المستوى السياسى الرسمى. فى ضوء كل هذا تبدو ظاهرة الدعاة الدينيين الجدد كجزء مهم جدًا من المشهد الدينى والاجتماعى وربما السياسى فى مصر.. وفى خلفية المشهد سنرى العديد من التفاصيل ذات العلاقة بالمكون

الرئيسى للمشهد (الدعاة الجدد) هذه التفاصيل تبدو عديدة ومتشابكة، ولعل هذا هو ما يغرى بمحاولة وضعها فى سياق واحد.. بدءًا من شعار السينما الجديدة الذى رفعه مجموعة من الكوميديين الجدد فى أواخر التسعينيات قاصدين به ذلك النوع من الأفلام الذى يخلو من مشاهد الجنس والقبلات والعلاقات المحرمة اجتماعيًا ويعتمد بشكل رئيسى على الإضحاك، ومرورًا بصيحات الطب الإسلامى والعلاج بالحجامة والطب النبوى التى يشارك فى التنظير لها علماء يحملون شهادات علمية يعتد بها، ويستجيب لها جمهور ينتمى للشرائح العليا من الطبقة الوسطى، وهو جمهور لا ينقصه الوعى ولا المال للاعتماد على الوسائل الطبية الحديثة للعلاج، لكن هناك ما يغريه باتباع ذلك النوع من العلاج ربما ضمن حالة حنين كلى لماض مثالى يشكل مهربًا من واقع مظلم. من التفاصيل فى المشهد أيضًا أشياء أخرى مثل فرق الموسيقى الإسلامية والأفراح البورجوازية التى تكتسى بالصبغة الدينية، وعروض الأزياء الإسلامية التى تنظمها عارضات أزياء ومقدمات برامج يعلمن المرأة كيف تكون متدينة وجذابة فى الوقت نفسه، وكيف يمكن أن تغرى الرجال دون أن تتورط فى ارتكاب مخالفات دينية فيما يتعلق بالمظهر الشرعى للمرأة. فضلاً عن ظاهرة المعالجين النفسيين والاجتماعيين الإسلاميين الذين يتلقون شكاوى المراهقين والشبان المتدينين ويخبرونهم كيف يمكن أن يحلوا مشكلات الحب والغيرة وخلافات الآباء مع الأبناء فى إطار إسلامى. ورغم أن النصائح من هذا النوع قد لا تختلف سواء كان

الإخصائى النفسى إسلاميًا «أم لا» إلا أن إصرار الطرفين على منح ما يتحدثون عنه صبغة إسلامية يفتح الباب أيضًا للتساؤل حول الدافع لذلك. وبالقرب من ذلك أيضًا يمكن أن تلمح ظواهر مثل الريجيم الإسلامى، والصالونات النسائية الإسلامية التى استبدلتها الكثير من نساء المجتمع الراقى بجلسات النميمة فى حدائق النوادى الكبرى. وبشكل أو بآخر فإن الاقتصاد يبدو حاضرًا بقوة فى كل تفاصيل هذا المشهد الدينى الجديد سواء عبر رجال الأعمال الذين يتولون رعاية ودعم وتقديم بعض الدعاة الجدد أو عبر شركات الكاسيت الإسلامى التى يملك الدعاة الجدد أجزاءً منها.. والتى تحقق أرباحًا هائلةً من خلال أرقام مبيعات كبيرة لمجموعات بعض الدعاة الجدد مثل «عمرو خالد» الذى كانت مجموعاته هى الأعلى مبيعًا فى معرض الكتاب بالقاهرة فى العام الماضى.

الاقتصاد يبدو حاضرًا أيضًا وبقوة من خلال الخطاب الذى يوجهه بعض الدعاة الجدد لجمهورهم وهو خطاب يبارك الثروة ويجعلها دليلاً على رضا الله ويعتبر أن تنميتها هى فعل من أفعال التقرب إلى الله.. وإذا دققنا النظر فى الجمهور نفسه سنجد أنه جمهور كبير ومتعدد لكن النسبة الغالبة والحضور الأكبر يبقى للشبان والشابات المنتمين للشرائح العليا من الطبقة الوسطى وهم مؤهلون تأهيلاً علميًا جيدًا، ومعظمهم مهنيون ناجحون يعمل معظمهم فى مجالات البنوك وشركات الاتصالات والفروع المصرية للشركات الغربية. وبشكل أو بآخر فإن هؤلاء سيشكلون النخبة

القـادمة فى مـصـر. وإذا كـان الأمر لا يخلو من دلالة سـياسـية، فإنه أيضًا يعنى أن الاقـتصـاد يبقـى حاضـرًا وبقوة لدى كل أطراف اللعبة (الرعاة والدعاة والجمهور).

الفصل الأول

من هم الدعاة الجدد؟؟

إن أسهل تعريف للدعاة الجدد.. هو أنهم ليسوا أولئك الدعاة القدماء. إن هذا يبدو وكأنه تعريف جامع مانع، فهم ليسوا أولئك الدعاة الأزهريين الذين يلتزمون بالزى التقليدى وبلغة الخطاب التراثية القديمة وبموضوعات من المؤكد أنها لا تهم السامع بقدر ما تهم المتحدث، وفى كثير من الأحيان فإنها قد لا تهم الاثنين معًا. الدعاة الجدد إذن ليسوا دعاة الأزهر حتى ولو تخرج بعضهم منه وهم بالتأكيد ليسوا أولئك الدعاة السلفيين الذين ينتشرون فى مساجد الأحياء الشعبية الفقيرة بلحى غير مهذبة وثياب باكستانية وخطاب ملىء بالزجر والتخويف ومفرط فى سلفية متزمتة ومُعادٍ للحكومة ولمظاهر التطور الغربية فى المجتمع.. الدعاة الجدد ليسوا أولئك ولا هؤلاء. من هم إذن؟ هذا سؤال مهم. كيف ظهروا؟ هل هم بمثابة بروتستانتية إسلامية جديدة؟ لماذا تقبل الشرائح

الاجتماعية العليا على خطابهم؟ هل هم امتداد اجتماعى لحركة الإخوان المسلمين؟ أم أنهم ـ كما يرى البعض ـ دليل على فشل الجماعة؟

وهل ينجح هؤلاء فى صبغ المجتمع بصبغة إسلامية كاملة؟ هل ينجح الشبان حليقو اللحية حسنو المظهر فيما فشل فيه قادة التنظيمات العنيفة والزعماء السياسيون المخضرمون ؟

هل صحيح أنهم لا يعملون بالسياسة كتكتيك مرحلى حتى يتجنبوا عداء السلطة؟ أم أن السياسة لا تعنيهم على اعتبار أنهم يروجون لمفهوم الخلاص الفردى المستقى من البروتستانتية الجديدة؟ هل انتماء بعضهم السابق لجماعة الإخوان المسلمين يمكن أن يحمل دلالة ما..؟ أم أنه يبقى فى إطار التاريخ الشخصى ويمكن تفسيره طبقًا لقاعدة أن التنظيم السياسى لا يتسع سوى لنجم واحد وبالتالى فإن خروج الدعاة من التنظيم بعد أن يذوقوا طعم النجومية أمر طبيعى.

ما مدى العلاقة بين صعود طبقات ونخب جديدة مع التغيرات الاقتصادية الحادة فى المجتمع المصرى وبين ظهور هذا النوع من الدعاة؟ هل هم تعبير عن أزمة الطبقة الوسطى أم دليل انتعاش لها؟، ثم هل اجتذب هؤلاء الكاريزميون الجدد كل تلك الجماهير الغفيرة والتى يقدر عددها بمئات الآلاف؟ أم أن هذا الجمهور نفسه هو الذى أفرز هذا النمط من الدعاة ليلبى احتياجات جديدة لديه لم يعد الدعاة التقليديون قادرين على تلبيتها.

إن الإجابة على هذه الأسئلة تبدو مهمة جدًا لفهم الظاهرة ووضعها فى سياقها الاجتماعى والسياسى.

النشأة التاريخية

على عكس ما يعتقد الكثيرون فإن ظاهرة الدعاة الجدد ليست وليدة السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة فى مصر، ورغم أن الظاهرة قد بلغت ذروتها فى السنوات الأخيرة مع تزايد أعداد الجمهور وانتشار الصالونات الإسلامية ودروس المساجد، ثم القنوات الفضائية كوسيط إعلامى واسع الانتشار إلا أن عمر الظاهرة يعود إلى ما قبل ذلك بسنوات وربما كانت مناقشة مجلة روز اليوسف فى صيف ٢٠٠٠ لمجموعة من خطب الداعية الأشهر والأكثر جماهيرية بين الدعاة الجدد «عمرو خالد» وما أعقبه من اهتمام الصحافة المصرية بشتى اتجاهاتها بأمره باعتباره نجمًا ذا جمهور حقيقى ربما كان هذا هو ما دفع عددًا من الباحثين الغربيين إلى الاعتقاد بأن الظاهرة بدأت مع الداعية «عمرو خالد». ومن ثم فإن تاريخها مرتبط بتاريخه الشخصى كداعية ظهر فى

عام ١٩٩٧ ليخلف «د. عمر عبد الكافى» فى الخطابة بمسجد نادى الصيد أحد أندية الصفوة فى مصر. ورغم أن «عمر عبد الكافى» هو بالمعايير العلمية أحد أبرز إرهاصات الدعاة الجدد، إلا أنه ليس الأول. وإذا اتفقنا على عدد من المعايير التى تحدد ملامح الداعية الجديد سنجد أن الداعية الجديد هو ذلك الشخص الذى تلقى تعليمه الدينى خارج المؤسسة الدينية الرسمية «الأزهر» وهو يعتمد فى ثقافته الدينية إما على التعلم المباشر والتثقيف الذاتى أو على تلقى العلم من أحد الشيوخ فى حلقات العلم فى المنازل. الداعية الجديد أيضًا هو مهنى ناجح له عمل مستقل عن كونه داعية وهو يرتدى الملابس الأوروبية ويقدم خطابًا بسيطًا يربط الدين بالحياة والمشاكل الاجتماعية، وفضلاً عن حسن المظهر والتمتع بالقبول الاجتماعى والقدرة على توصيل المعلومة بسهولة، كما أن أهم ما يميز الداعية الجديد هو جمهوره الذى يتكون معظمه من الشباب والنساء الذين ينتمون للشرائح الاجتماعية الأعلى.. والذين يبدون فى حاجة لتدين لا يحرمهم من مباهج الحياة التى يملكونها بالفعل وفى الوقت نفسه يمنحهم نوعًا من الدعم الروحى ويجيب لهم عن الأسئلة التى تتعلق بجدوى الحياة أو الفائدة منها.

ياسين رشدى .. بداية الطريق

إذا طبقنا هذه المعايير فنحن إزاء ثلاثة أجيال من هؤلاء الدعاة، وربما كان الجيل الرابع فى طور التشكل والتكوين، ولعل أول هؤلاء الدعاة هو الداعية السكندرى «ياسين رشدى» الذى كان أول حالة نموذجية للنمط الجديد من الدعاة، فهو قبطان بحرى يملك استثمارات فى مجال تصدير واستيراد القمح، لمع نجمه بشدة حين قدمته المذيعة المحجبة «كريمان حمزة» فى برنامجها الدينى «الهدى والنور» الذى كانت تقدمه على شاشة التليفزيون المصرى، كان ذلك عام ١٩٩١ . وربما كانت مصادفة أن البرنامج نفسه هو الذى قدم الداعية «عمر عبد الكافى»، ثم «عمرو خالد» فى سنوات تالية.

ورغم أن الداعية «اسين رشدى» ـ وفقًا لما يرويه عن نفسه ـ يمارس الدعوة منذ ما قبل عام ١٩٦٥ إلا أن نجمه لم يبدأ فى

الظهور إلا فى عام ١٩٩١ بعد أن قدمه التليفزيون المصرى وفتحت له وسائل الإعلام أبوابها وكرمه الرئيس مبارك بوسام رسمى. وإذا عدنا للمعايير الموحدة التى افترض أنها تميز الدعاة الجدد وأوجه التشابه بينهم فسنجد أن رواية الشيخ ياسين رشدى لسيرة حياته تضع أيدينا على كثير منها فهو كان ضابطًا فى الجيش المصرى لكنه أبعد من الخدمة فى عام ١٩٦٥ بعد الاشتباه فى تعاطفه مع جماعة الإخوان المسلمين التى كانت فى أوج مواجهتها مع النظام، وهو لا يوضح إذا ما كان متعاطفًا مع الجماعة أم لا، ولكننا سنجده يؤكد فيما بعد أنه لم يصبح عضوًا فى أية جماعة، وأن ما سبب له المشكلة هو أنه كان ينظم دروسًا دينية لزملائه من الضباط. ومن المؤكد أيضًا أن ظاهرة الصالونات الإسلامية أيضًا ليست وليدة التسعينيات تمامًا فالشيخ «ياسين رشدى» استمر حسب روايته يمارس الدعوة سرًا فى عدد من المنازل بين القاهرة وطنطا والإسكندرية. وبما أنه عسكرى سابق فهو بالتأكيد لم يتلق تعليمًا دينيًا منتظمًا، لكنه تلقى العلم وفقًا لطريقة الشيخ والمريد، وكان شيخه هو الشيخ «محمد الأمير» الذى أجازه للدعوة بعد سنوات من حضور الدروس ومع سنوات السبعينيات واتجاه نظام الرئيس السادات لاستيعاب التيارات الدينية بدأ الشيخ «ياسين رشدى» يمارس نشاطه بشكل علنى، وفى ١٩٧٦ تحول من موظف كبير متدين إلى رجل أعمال تنامت أعماله طوال سنوات الثمانينيات والتسعينيات.

وهكذا سنجد أننا إزاء رجل أعمال يمارس الدعوة ويملك مركزًا إسلاميًا ومسجدًا هو مسجد المواساة. لم يكن غريبًا أن تكون

النسبة الغالبة من الجمهور منتمية للطبقة الاجتماعية التى ينتمى لها الداعية؛ الذى حرص على أن يكون مسجده مكيف الهواء ومؤثثًا بأثاث فاخر، ولم يكن غريبًا أن يزود المسجد بوحدة لتسجيلات الكاسيت والفيديو تتولى تصوير دروسه وطرحها للبيع وسواء كان ذلك بمثابة إرهاصة أولى من إرهاصات طرح الدين كأحد مكونات السوق، أو كان وعيًا بضرورة استخدام التقنية الحديثة كوسيلة لمزيد من ترويج الخطاب الدينى؛ فإن كلا الافتراضين يصب فى نهر الظاهرة الجديدة التى نستطيع أن نقول إنها بدأت تظهر بملامح واضحة منذ بدايات التسعينيات. أما إذا جئنا لمضمون الخطاب فالأكيد أن الشيخ «ياسين رشدى» لم يكن يهتم بالسياسة وكان حريصًا على أن يقدم آراءً معتدلة إذا ما قورنت بالمناخ المتشدد والممارسات الدموية التى كانت تقدمها جماعات العنف المسلح التى كانت فى أوج ازدهارها فى بداية التسعينيات وبقدر عدم اهتمامه بالسياسة بمعناها المباشر سنجد أن الشيخ ياسين رشدى كان مهتمًا بطرح ذلك النوع من خطاب الإسلام المجتمعى المرتبط بالحياة، وهو ما أصبح سمة غالبة على الخطاب الذى يقدمه خلفاؤه من الدعاة. وهكذا سنجد دروسًا وخطبًا عن التربية فى الإسلام والمخاطر التى تهدد المراهقين والشباب كما سنجد ذلك الاهتمام بالمرأة والذى يؤتى مردودًا سريعًا عبر الحديث عن النساء المؤمنات ونساء بيت النبوة. وهو ما تكرر أيضًا بشدة مع كل من ظهروا فيما بعد من الدعاة. والحقيقة، أن أولئك الذين يرجعون التفاف النساء حول هذا النوع من الدعاة لأسباب مظهرية مثل

الوسامة، والمظهر الحسن، ونبرة الصوت يقعون فى هوة التسطيح ويتجاهلون جزءًا من الحقيقة وهو أن هؤلاء اهتموا بالمرأة فى خطابهم بشكل واضح سواء عبر طرح الموضوعات التى تهمها بشكل رئيسى أو عبر توجيه الخطاب لها بالمساواة مع الرجل أو عبر استدعاء قصص مشرقة لنساء ذكرن فى الخطاب الدينى. فى سيرة الشيخ «ياسين رشدى» يمكن أن نلمح علاقته الوثيقة بالفنانات المحجبات وهو ما أصبح سمة أساسية فى حياة الدعاة الجدد. وبالنسبة لياسين رشدى فقد زوَّجَتْه الشائعات من ممثلة الإغراء الراحلة والمعتزلة مديحة كامل، وقد نفى الشائعة بشدة وقال إن علاقته بالفنانات المعتزلات هى علاقة (أخوة).

ولعل ما يلفت النظر أن علاقة الدعاة الجدد بالفنانات المعتزلات ورجال الأعمال المتدينين لا يمكن تركها لتفسر داخل الإطار الشخصى، لكنها علاقة تَوَاز وتبادل ودعم بين مراكز تجمع دينية جديدة تختلف عن الجماعات الراديكالية وتختلف أيضاً عن المؤسسة الدينية التقليدية. ولعل ما يجمع هؤلاء أنهم يريدون أن يتدينوا دون أن يفقدوا ما يتمتعون به فعلاً: الشهرة، والثروة والنفوذ والمشروعات التجارية. ولو تأملنا العلاقة المشتركة بين المجموعات الثلاث سنجد أن الفنانات والفنانين الذين يدخلون عالم الاعتزال لديهم الشُهرة، ولكن تنقصهم الثقافة والمشروعية الدينية. والدعاة لديهم الثقافة الدينية لكن تنقصهم الشهرة، ورجال الأعمال لديهم الثروة ولكن تنقصهم الشهرة والمشروعية الدينية. والثلاثة أطراف يمكن أن يكملوا بعضهم البعض.

وهكذا سنجد تدينًا جديدًا لا ينقصه النفوذ المادى ولا المعنوى وهو قوى وآمن ولا يسبب لأتباعه خسائر؛ لأنه لا يصطدم بالنظام السائد، بل إنه يتقاطع مع النخبة المؤثرة فى مناطق عديدة.

وإذا سلمنا بصحة هذا التفسير يمكن أن نفهم حادثة محاولة اغتيال «الشيخ ياسين رشدى» فى صيف عام ١٩٩٧ والتى اهتمت بها الصحافة اهتمامًا واسعًا، ولو نظرنا للتفسيرات التى قدمتها الصحافة لمحاولة الاغتيال يمكن أن نفهم أكثر. فجريدة الأسبوع المستقلة قالت فى عددها الصادر ١٩٩٧/٩/٢٢ إن شبهة منافسات تجارية تقف وراء الحادث، وأن استثمارات الشيخ رشدى فى صوامع الغلال قد تكون هى السبب. والجريدة قالت أيضًا إن التنافس مع شركات السياحة الدينية فى الإسكندرية على تنظيم رحلات الحج والعمرة قد يكون سبباً للمحاولة؛ حيث يستأثر الشيخ رشدى بالعدد الأكبر من الحجاج الذين يفضلون الرحلات التى ينظمها رغم ارتفاع أسعارها. أما مجلة روز اليوسف الصادرة فى ١٩٩٧/٩/٢٢ فقد قالت: إن الجانى ينتمى إلى منطقة تتمتع فيها الجماعات الراديكالية بنفوذ قوى وأن فكرة الإيمان المتدرج التى يؤمن بها ياسين رشدى قد تكون وراء المحاولة، وقالت أيضًا: إن التبرعات المادية الكبيرة التى يتلقاها الشيخ قد تكون هى السبب فضلاً عن احتمال وجود عنصر نسائى. أما الشرطة فقد حسمت الأمر حين قالت إن الجانى مجنون، وأسدلت الستار على القضية. وهكذا قبل أن يتوفى الشيخ رشدى فى نهاية التسعينيات كان قد فتح الطريق واسعًا أمام نمط جديد من الدعاة.

لكن قصص الحياة المثيرة التى تتشابك فيها الثروة مع الشهرة مع الشائعات لا يجب أن تشغلنا عن السؤال: لماذا ظهر هؤلاء؟

هناك تفسيرات متعددة ربما يكون أحدها أن النظام السياسى كان بحاجة ملحة لطرح نمط جديد من الدعاة الجماهيريين يسحبون البساط من تحت أقدام الجماعات الراديكالية العنيفة ذات القوة والنفوذ فى ذلك الوقت خاصة وأن بعض مشاهير العلماء التقليديين مثل: الشعراوى والغزالى كان موقفهم متفاوتًا رغم إدانتهم للعنف، وقد كانوا متحمسين لفكرة الوساطة بين الدولة والجماعات العنيفة أكثر من حماسهم لأى شىء آخر، ورغم أن هذا التفسير لا يخلو من وجاهة إلا أنه ليس هو التفسير الوحيد.

هناك أيضًا التفسير الذى سيقول لك إن الأثرياء دائمًا بحاجة إلى رجل دين يلعب دور المطهر الذى يحلل الثروة بغض النظر عن طريق جمعها ويؤكد للأثرياء أنهم يمكن أن ينالوا الدنيا والآخرة إذا اتبعوا خطوات معينة. وهذا التفسير ليس خاطئًا تمامًا لكننا لو أخذنا به لاكتشفنا أن كل داعية من هؤلاء هو بمثابة راسبوتين جديد، لكن المسألة ليست هكذا تمامًا.

الأكيد أن طبقة جديدة كانت تتكون فى بداية التسعينيات.. منهم من عاد من الخليج بثروات لا بأس بها، ورجال أعمال كونوا ثرواتهم فى الغرب واستجابوا لدعوات الاستثمارات فى مصر، ومهنيون ناجحون حققوا قدرًا من الاستقرار المادى.. والجميع يشعرون بأنهم غير مدعوين لأية مشاركة على المستوى السياسى. إن ملامح هؤلاء

تختلف عن الصورة النمطية لأثرياء الانفتاح، أولئك الحرفيون والتجار غير المتعلمين والمهربون وتجار الشنطة ومستوردو الملابس الذين فاجأهم الانفتاح بفرص ثراء كبيرة وإن بقيت صورتهم فى الوجدان الجمعى هى صورة أشخاص جهله.. ومبتذلين يتحدثون بطرق مضحكة ويستخدمون ألفاظًا غريبة ومبتذلة.

لقد توارى هؤلاء مع سنوات الثمانينيات والسياسات الجديدة التى رأت ضرورة إغلاق الأبواب وضبط الانفتاح. ومع التسعينيات بدأت طبقة وسطى جديدة فى التشكل، طبقة متعلمة كونت ثروتها عبر العمل والتجارة تملك قدرًا كبيرًا من الطموح وقدرًا أكبر من الفراغ الروحى والافتقار إلى دور عام فى المجتمع، وهذه الطبقة ليست بحاجة فقط إلى من يشغل فراغها الروحى، لكنها أيضًا بحاجة لخطاب يشجعها على مزيد من الصعود ومراكمة الثروة التى تبدو هى السند الوحيد لها فى مواجهة مناخ عام لا يسمح لها بأى دور سياسى. ومادام المجتمع بملامحه المعروفة مثل الأحزاب والمنظمات المدنية والتفاعل والجدل والحيوية والفنون غير موجود بالنسبة لهذه الطبقة؛ فلابد من استدعاء خطاب آخر يسمح لها بأن تحتفظ بما حققته بالفعل (الثروة) ويسمح لها بالاحتفاظ بما هو متاح لها من وسائل الحضارة الغربية (السلع الاستهلاكية ونظم العمل وعلاقات البيزنس). أما ما هو غير موجود بالفعل مثل الديمقراطية والمشاركة السياسية والحريات الشخصية والإبداع فلا داع له. ويمكن استبداله بأفكار مثل الأخوة فى الله والخلاص الفَردى وتقديم حلول دينية وأنماط علاقات جديدة بديلاً عن

العلاقات القديمة المرتبكة. وهكذا تحل أفكار تربية النشء فى الإسلام والحب على الطريقة الإسلامية وضوابط الصداقة والقرابة والعلاقات مع الوالدين ورؤساء العمل والجيران محل ركام من العلاقات المرتبكة والمشوهة التى هى خليط من ليبرالية شاحبة وأحلام قومية نظرية محبطة وأفكار محافظة حملتها الرياح القادمة من الخليج العربى لعقدين من الزمان.

وإذا وضعنا فى الاعتبار عوامل أخرى مثل فقدان المؤسسة الدينية لمصداقيتها وتبعيتها المطلقة للسلطة، وافتقارها للتجديد وهو نفس ما شاركتها فيها جماعة الإخوان المسلمين أكبر جماعات الإسلام السياسى وأعرقها. إذا وضعنا كل هذه العناصر بجانب بعضها البعض، سنجد أننا أمام تيار جديد يحمل بعض ملامح البروتستانتية الإسلامية، لكنه مازال فى إطار تقليدى؛ إذ إنه يجدد فى شكل الداعية وفى الوسائط التى يستخدمها لنقل خطابه دون أن يجدد فى الخطاب نفسه، وهو ليس قديمًا لأنه؛ يفتقد الرغبة فى التجديد، ولكن لأنه يفتقر للقدرة على التجديد والابتكار.

عمر عبد الكافى .. داعية (الملأ)

الظاهرة قديمة إذن، والداعية الأشهر عمرو خالد ليس هو الأول، كما أنه لن يكون الأخير، والأكيد أن الظاهرة قد تطورت ونمت خلال عقد التسعينيات لكن هذا التطور فى خطاب الدعاة الجدد لم يحدث فجأة وبالتأكيد فإنه لا يوجد خطاب جاهز يمكن أن نطلق عليه خطاب الدعاة الجدد. وبعض هؤلاء الدعاة قد يختلفون فى سمات ويتشابهون فى سمات أخرى. ولعل هذا ينطبق بشدة على حالة د. عمر عبد الكافى الداعية الأشهر خلال السنوات الأربع الأول من عقد التسعينيات ـ والممنوع من الخطابة حاليًا ـ ولعله أول من قدم نموذج الداعية ذى الملابس الأوروبية الأنيقة واللحية المهذبة وهو بالتأكيد ليس رجل دين تقليدى؛ حيث إنه درس علوم النباتات وكان حتى عام ١٩٩٤ يعمل باحثًا فى أكاديمية البحث العلمى كما أنه رجل أعمال يملك شركة تعمل فى

مـجـالات اسـتـصـلاح الأراضى والميكنة الـزراعـيـة، كـمـا أنـه يملك مـدرسـة إسـلامـيـة خـاصـة لتعليم اللغـات. هو إذن داعيـة ذو عـلاقـة وثيقة بالأعمال المالية وهو لم يتلق تعليمًا دينيًا منظمًا وإن كان قد صرح فيما بعد ـ حين هاجمته الصحافة واتهمته بعدم التخصص فى الدين ـ بأنه حصل على الماجستير فى الدراسات الإسلامية من جامعة الأزهر. عمر عبد الكافى الذى كان يحظى بشعبية هائلة دفعت عشرات الآلاف لحضور دروسه فى مسجد «أسد بن الفرات» فى حى الدقى الراقى كـان أول من حـول نادى الصـيـد إلى مـركـز دينى قوى حيث كان أول داعية شهير يستطيع أن يجتذب الآلاف من جماهير النادى الذى يعد ثانى أكبر النوادى المصرية من حيث تكلفة الانضمام له، والشرائح الاجتماعية التى تنضم لعضويته، ولقد كان ذلك خطوة ضمن عدة خطوات أدت إلى غلبة الاتجاه الدينى المحافظ على النادى الذى صار مركزًا للاتجاهات المحافظة لدى الشرائح العليا للطبقة الوسطى، وكان من أبرز علامات ذلك أن توالى على الخطابة فى مسجده بعد «عمر عبد الكافى» كل من «عمرو خالد» و«خالد الجندى» والاثنان من أشهر الدعاة الجدد فضلاً عن دعاة آخرين أقل شهرة وإن كانوا يحظون بجماهيرية لا بأس بها.

«عمر عبد الكافى» الممنوع من الخطابة حاليًا لم ينل الرضا الكامل من السلطة لأسباب متعددة؛ لعل أهمها أنه لم يقدم خطاباً مضادًا للعنف، ولكنه قدم خطابًا منزوع العنف بمعنى أنه قدم ذلك الخطاب السلفى التقليدى الذى ينص على أن الإسلام دين ودولة

وأن الشريعة الإسلامية يجب أن تسود كافة مناحى الحياة؛ لكنه لم يتطرق للحديث عن كيفية إقامة الدولة الإسلامية، وما إذا كان العنف وسيلة مناسبة أم لا؟. ولعل هذا ما انتبه له خلفاؤه الذين ركزوا على الجوانب الأخلاقية وجوانب المبادئ والمعاملات الاجتماعية. ولعل أبرز سمات الخطاب التقليدى رغم التطوير فى الشكل لدى عبد الكافى هى تلك الفتوى الشهيرة التى أفتى فيها بعدم جواز أن يبدأ المسلم المسيحى بالسلام أو أن يهنئه فى الأعياد الدينية الخاصة به وهى الفتوى التى تلقفتها مجلة روز اليوسف فى مارس ٩٤ لتطالب بإيقاف الداعية الذى اعتبرته خطرًا يهدد الوحدة الوطنية، بل إن المجلة أطلقت على «عمر عبد الكافى» لقب شيخ النساء والفتنة الطائفية فى إشارة لجمهوره الكثيف من النساء ولفتواه المعادية للمسيحيين. بعدها كان على عبد الكافى أن يصطحب وزير الأوقاف المصرى د. محمد على محجوب فى زيارة اعتذار للبابا شنودة؛ لكن ذلك لم يوقف الغضب. وبعد عام كامل من تفجير القضية كان عبد الكافى قد منع من الخطابة نهائيًا، وبشكل صريح وواضح قالت صحيفة المواجهة - وهى صحيفة صفراء تهتم بفضائح المشاهير - إن سبب المنع يعود إلى تجاوزات أخلاقية خطيرة سجلتها الأجهزة الأمنية. وفق هذا السيناريو كان «عمر عبد الكافى» بمثابة راسبوتين صغير، لكن عبد الكافى تحدث عقب ست سنوات من إيقافه وقدم تفسيرًا مختلفًا تمامًا وفى حوار مع (المجلة) بتاريخ ٢٠٠٠/٣/١٨ سنجد عبد الكافى يقول: إن الفتوى التى أفتاها بشأن المسيحيين يرجع تاريخها لعام ٨٨ وأن

مجلة روز اليوسف لم تعلق عليها سوى فى عام ٩٤ بعد أن زادت شعبيته وصار جمهوره بالآلاف.

عبد الكافى يرى أن السبب فى منعه هو أنه اقترب من طبقة النخبة التى يُمنع رجال الدين من الاقتراب منها فى المجتمعات العربية. وهو يستخدم تعبير (الملأ) وهو لفظ تراثى كانت الارستقراطية القرشية غير المسلمة توصف به فى مكة قبل بعثة الرسول (ﷺ).. يرى عبد الكافى أن اقترابه من طبقة الملأ أو طبقة الصفوة هو السبب فى منعه، إذ إنه اخترق هذه الطبقة دون إذن مسبق، وهو يرى أن «هؤلاء جاءوا إليه لكى يستمعوا إلى كتاب الله حيث إن الإسلام لم ينزل للفقراء وحدهم كما أنه لم ينزل للأغنياء وحدهم ولكنه نزل لكل إنسان» وهو يخمن «أنه اخترق طبقة من المجتمع الإسلامى أو العربى أو المصرى كان يجب عدم الاقتراب منها»، عبد الكافى رأى أن السبب فى منعه أيضًا هو سياسة تجفيف منابع التطرف التى اتبعتها كثير من الحكومات العربية حيث أدركت أن الدعاة المعتدلين أكثر تأثيرًا فى المجتمع من أصحاب الصوت العالى.

فى كل الأحوال يمكننا التعامل مع «عمر عبد الكافى» على أنه أحد أطوار تكوين ظاهرة الدعاة الجدد وربما كان هو (رأس الذئب الطائر) الذى تعلم منه الآخرون فيما بعد. ومن ناحية المظهر والجمهور وأماكن الخطابة والتحالف مع المراكز الدينية الجديدة ذات الصبغة البرجوازية ـ كان عمر عبد الكافى نموذجًا للداعية

الجديد. وهو مثلاً كان يدافع عن فخامة ملابسه الأوربية مستندًا إلى مقولة للتابعى «أبو الحسن الشاذلى» كان يدافع فيها عن ملابسه الحريرية غالية الثمن ويقول أن من يرى هذه الملابس سيدرك أن صاحبها لا يحتاج إلى شىء سوى رضا الله!. أما إذا جئنا لمضمون ما يردده فسنجد أنه تقليدى جدًا ولا يختلف عن الخطاب الذى تقدمه جماعات الإسلام السياسى بمختلف تنويعاتها. وهو يعلن بشكل واضح أن فصل الدين عن الدولة وعن السياسة هو قول علمانى كافر. كان يرى أيضًا أن الدولة أخطأت فى التعامل مع التنظيمات الإسلامية العنيفة، وأن هناك تسعة أسباب شرعية تمنع الصلح مع اليهود. عمر عبد الكافى الذى مازال لا يمارس الخطابة حتى الآن حاول العودة للأضواء فى عام ٢٠٠٠ لكنه جوبه بتسريبات صحفية وهجوم إعلامى يلمح إلى قصة الفضيحة الشخصية، وقد صرح للصحافة أنه عاكف على كتابة موسوعة علمية عن الإعجاز العلمى فى القرآن وهذا الموضوع بدوره هو أحد الموضوعات المهمة على أجندة الدعوة الجديدة التى تهتم بتقديم كل ما هو شيق وطريف وله ارتباط ظاهرى بأشكال الحياة المدنية. لكنه يبدو حاليًا مثل الفنانين المعتزلين ومثل النجوم الذين يقررون العودة للتمثيل بعد أن تتغير طبيعة السوق ويظهر نجوم جدد، ولعل هذا هو ما حدث حيث ظهر آخرون مثل «عمرو خالد» أكثر قربًا من جماهير المراهقين من ناحية السن وطريقة التفكير السطحية، كما أنهم أكثر حرصًا على البعد عن المناطق الشائكة، والبوابة أيضًا كانت نادى الصيد.

أسلمة نادى الصيد
توبة البرجوازية

ربما كـان تسلسل الأحـداث فى نادى الصـيـد المصـرى خـلال السنوات العشر الأخيرة هو أحد المؤشرات العامة للتحولات التى أصابت البرجوازية المصرية ودفعتها نحو مزيد من المحافظة والتدين، فالطبقة التى ظهرت جذورها الأولى فى إطار مشروع الوالى محمد على باشا لتحديث مصر كانت تستمد مشروعيتها بالدرجة الأولى من المساهمات التى تقدمها لتعضيد مشروع الدولة الحديثة فى مصر، والموظفون الكبار الذين كانوا يجتهدون فى تنفيذ ما يوكله الوالى إليهم من مهام كانوا يكافئون بإقطاعيات من الأراضى الجديدة المستصلحة وبألقاب رسمية كانت كافية مع الإقطاعات والرواتب الحكومية، لأن تنقلهم من خانة المغامرين

والمرتزقة إلى خانة الصفوة. ومع عودة الروح لمشروع التحديث على يد الخديوى إسماعيل فى ستينيات القرن التاسع عشر ومع مزيد من الإصلاحات مثل السماح للمصريين بتملك الأراضى وعودة البعوث إلى أوروبا وتكوين مجلس شورى القوانين ١٨٦٦ واكتمال الشكل الأوروبى للحكم الذى تتولاه حكومة مسئولة وإن كانت غير منتخبة ـ كانت البرجوازية المصرية تكتسب مزيداً من الوعى والحقوق والمكاسب المرتبطة فى مجملها بمشروع التحديث الغربى لمصر.

فى السنوات التالية وبعد الاحتلال البريطانى لمصر تأكد المعنى ذاته وانقسمت البرجوازية المصرية حول طريقة التعامل مع الاحتلال، لكنها لم تنقسم أبدًا حول ضرورة التحديث. كانت العائلات الكبيرة تتنافس على إرسال أبنائها لجامعات الغرب السوربون أو أكسفورد كان هذا السؤال الذى أبدًا لم يكن هل التعليم فى الغرب.. حلال أم حرام؟ ومع مزيد من صعود البرجوازية الصغيرة التى عبرت عن نفسها بحركات دينية مثل الإخوان المسلمين وفاشية مثل مصر الفتاة جاءت ثورة يوليو لترتبك البرجوازية المصرية ارتباكتها الأكبر. وتبدأ ملامح طبقة أخرى فى الظهور هى مزيج من تحالف العسكريين والتكنوقراط والمهنيين الذين تعلموا فى مدارس الثورة ليسهموا فى بناء مشروع الدولة الوطنية الجديد الذى انتهى تمامًا مع هزيمة ٦٧ . ليبقى الجميع فى حالة تساؤل عن مشروع ما ومشروعية ما..

ومع سنوات السبعينيات وتحالف نظام السادات مع جماعة الإخوان المسلمين وتنامى المد الدينى وهجرة العمالة المصرية للسعودية وظهور جماعات الرفض والتكفير والهجرة واعتزال المجتمع ثم محاولة تغييره، ثم هزيمة هذه الجماعات فى صراع القوى مع الدولة. هكذا ظهرت الحاجة لإسلام جديد ينتشر فى المجتمع بهدوء ويؤثر فى أكبر قدر ممكن من الناس دون صدام مع الدولة ودون أن يخرج الفرد من سياق حياته الطبيعى. ربما كان هذا استجابة لمبدأ جماعة الإخوان المسلمين الذى يرى ضرورة بناء الفرد المسلم كمقدمة لبناء الدولة المسلمة، وربما كان اختيارًا نهائيًا اختارته الظاهرة الإسلامية بعد أن وجدت أن جميع الطرق مسدودة أمام محاولات التغيير بالقوة، وربما أيضًا كان احتياجًا للطبقات الجديدة الصاعدة التى تنمو اقتصاديًا لكنها لا تملك مشروعًا سياسيًا أو اجتماعيًا واضحًا. وسواء كان أى من هذه الفروض صحيحًا أم لا.. إلا أن الاتجاهات المحافظة بدأت تغزو الكثير من المراكز الاجتماعية، وفى منتصف الثمانينيات وفى الوقت الذى كان مرشحو جماعة الإخوان المسلمين يكتسحون انتخابات النقابات المهنية كان الآلاف من المصريين الذين سافروا لدول الخليج يعودون ليستقروا فى مصر بشكل نهائى. وبحكم أن الأحياء الراقية القديمة مسكونة بالفعل ببقايا الطبقات التى كانت، فقد تركز معظم هؤلاء فى حىِّ الدقى والمهندسين الراقيين وبحكم وجود جيران جدد أثرياء فقد فتح نادى الصيد أبوابه للعضوية مقابل رسوم مادية كبيرة وحسب تقرير نشرته مجلة روز اليوسف فى

٢٠٠١/٨/١٨ فقد تحالفت كتلة العضوية الجديدة مع رجل الأعمال المصرى الشهير «حسين صبور» لخوض الانتخابات ضد قائمة حكومية كان يرأسها رئيس نادى القضاة المصرى «مقبل شاكر» وتضم أحد مسئولى الأمن فى الستينيات كان الإخوان يعتبرونه مسئولاً عن تعذيبهم. صبور الذى لم يكن يومًا محسوبًا على أى تيار سياسى دينى تبرع بخمسة ملايين جنيه لبناء مسجد كبير فاخر لنادى الصيد؛ وهو ما زاد بشدة من شعبيته ومنحه أصوات كتلة المحافظين؛ خاصة وأن المسجد استضاف دروس د. عمر عبد الكافى الداعية المفضل لدى هذه الطبقة فى النصف الأول من التسعينيات وحين منع عمر عبد الكافى من الخطابة شهد مسجد النادى ميلاد داعية آخر هو عمرو خالد الذى صار فيما بعد داعية شهيرًا جدًا وبحكم كونه عضوًا فى النادى منذ طفولته وكشاب صغير متحمس عبر عن حماسه للإسلام بالانخراط ضمن التنظيم الطلابى للإخوان المسلمين فى جامعة القاهرة والعمل ضمن الفريق المساعد للمستشار «مأمون الهضيبى» الذى عادةً ما كان يرشح نفسه على المقعد النيابى فى دائرة الدقى.. هكذا وجد «عمرو خالد» نفسه يملأ الفراغ الذى تركه عمر عبد الكافى فى مسجد نادى الصيد ثم على مستويات أكبر فيما بعد، الداعية الذى لاقى قبولاً لا بأس به تم إيقافه بعد فترة بسبب تطرقه إلى موضوعات سياسية وهكذا كان على الداعية الصغير أن يختار. وبسبب الإعجاب الذى لاقاه وبسبب النفوذ والتأثير اللذين يحظى بهما الكثير من أعضاء نادى الصيد فقد وجد عمرو خالد من يتوسط

بينه وبين الجهات المعترضة عليه، وكان الاتفاق أنه لا مزيد من السياسة، وربما لا مزيد من العلاقة بالإخوان المسلمين.

ولعل هذه النقطة بالتحديد هى الأكثر إثارة للجدل حول الموقف من الدعاة الجدد فالكثير منهم عُرف عنهم التعاطف مع جماعة الإخوان قبل أن يشتهروا كدعاة. وفى حالة «عمرو خالد» مثلاً ثار جدل كبير واتهمته مجلة «روز اليوسف» التى كانت أول من انتبه للظاهرة فى أغسطس ٢٠٠٢ بأنه من الإخوان المسلمين فى محاولة لتفسير قرار منعه من الخطابة، فى هذه النقطة تتصارع وجهتا نظر ترى أولاهما أن جمهور المراهقين منعدم الثقافة الدينية والعلمانية وسرعان ما سيصبح جمهورًا جاهزًا تتلقفه جماعات الإسلام السياسى الراديكالية بعد أن يمر بالمرحلة التمهيدية على يد داعية مثل «عمرو خالد» الذى يقدم صورة طوباوية شديدة المثالية خالية من التفاصيل البشرية لمجتمع المسلمين الأوائل ـ وفضلاً عن أنه يحاول دفع جمهوره من المراهقين للانبهار بالصورة التى يقدمها ومحاولة إحيائها ـ فإنه لا يكف عن ترديد فكرة أن الإسلام دين ودولة وأنه لابد من اتباع القواعد الإسلامية لإصلاح كافة مناحى الحياة.

وهكذا فإن الداعية الأخلاقى بالأساس يقدم جمهورًا كبيرًا من الشبان والفتيات الذين اقتنعوا بهذه الأفكار لكنهم لا يعرفون كيف يطبقونها ـ وهو ما يمكن أن يأتى فى مرحلة تالية عبر الانضمام لجماعات سياسية أو حتى مجرد التعاطف ومنح الأصوات للمرشحين الإسلاميين مثلاً.

وفى حين يرى «عصـام سلطـان» أحد مـؤسـسى حـزب الوسط ـ الخـارج مـن عبـاءة الإخـوان نحـو مـزيد من الليـبرالية ـ أن ظهـور عمـرو خـالد والدعـاة الجدد هو دليل فـشل الجمـاعـة التى لم يعد خطابهـا قـادرًا على اسـتقطاب المزيد من الجمـاهيـر الراغبـة فى التـدين، بل أنـه دليل أيضًـا على أن الجـمـاعـة لم تعـد قـادرة على استيعاب الدعاة أنفسهم الذين فضل بعضهم أن يشق طريقه للناس بعيدًا عن الجماعة والصراعات الداخلية فيها والقيود المفروضة على طمـوحـات وحـركة أعـضـائهـا سـواء من السلطة أو مـن قيـادة الجـمـاعـة. فى الوقت نفسـه سنجـد "عـصـام العـريان" القـيـادى الإخوانى يُرجع التفاف الناس حول عمرو خالد والدعاة الجدد إلى حالة الفراغ السياسى الموجودة وكذلك حالة الفراغ الدينى.

وهو تفسيـر دائمًـا ما تقـدمه الجـماعـة لأية ظاهرة إسـلامية خارجة من عباءتها سـواء كانت الظاهرة هـى التنظيمات الإسلامية العنيفـة أو الـدعـاة الجدد الذين يتهم بعضـهم أحـيـانًا بالإفراط فى الاعتدال. لكن الأكيد أن الشبـان الصغار المتعـاطفين مع الإخوان هم جزء من جـمـهـور «عـمـرو خـالـد» لكنهم ليسـوا الكتلة الرئيـسيـة؛ إذ تتسع صفوف جمهوره لتضم آخرين لا علاقة لهم على الإطلاق بأى أحـزاب أو مـجـمـوعـات سيـاسـيـة، وبدون أية مـبـالغـة فـإن بعـضـهم لا يعرف أسماء هذه الأحزاب والجماعات على الإطلاق..

لكن «عـمـرو خـالـد» لا يبدى اهتـمـامـاً كبيـراً بـالسيـاسـة. وتحليل الدروس التى يلقيـهـا يؤكـد أنه يهتـم أكثـر بفكرة الخـلاص الفـردى

وتكيف الأشخاص المتدينين مع من حولهم.. بحيث يصبحون أكثر تأثيرًا وعن طريق الدين فإن الشخص يمكن أن يحيا سعيدًا فى الدنيا والآخرة كما أن الله سيكافئه بأشياء مثل زيادة ثروته، واتساع فرص العمل أمامه.. بل أنه أيضًا يؤكد لمستمعيه بأن عليهم أن يسعوا للنجاح فى العمل ولجمع الثروة؛ لأن هذا سيجعلهم نماذج إيجابية ومشرقة للمسلمين المتدينين ـ ولاشك أن ذلك التبشير بحياة سعيدة ومثمرة بعد الدخول فى مرحلة الالتزام الدينى هو أحد أسباب زيادة شعبية عمرو خالد... كما أن ما ينادى به من ضرورة الحرص على الوقت والتحلى بالذوق وعدم الانخراط فى علاقات غير شرعية وضرورة الحرص على النجاح فى العمل وتكوين ثروة هو بمثابة وصفة ناجحة للصعود الاجتماعى. ولعل هذا هو ما يجعل الكتلة الرئيسية من جمهوره من الشبان الصغار الذين تلقوا تعليماً جيدًا يؤهلهم للعمل فى قطاعات الاستثمار الأجنبى والبنوك وشركات الاتصالات، ولاشك أن هؤلاء بحاجة إلى من يجيب لهم عن السؤال الخاص بجدوى حياتهم... وفى ضوء غياب مشروع نهضة وطنى فإن «عمرو خالد» يقدم الإجابة ـ الجدوى من الحياة هى نوال رضا الله وعبادته وإنجاب أبناء صالحين، أما إذا جئنا للتفاصيل فسنجد أن «عمرو خالد» يقدمها أيضًا، فعلى المسلم أن يتحلى بالصفات الجيدة مثل الذوق والتواضع والصبر وحب الآخرين، وهذه كلها أسماء دروس شهيرة لعمرو خالد، وحين تتحلى بها فأنت فقط لا تضمن رضا الله ولكنك أيضًا تضمن أن تدخر طاقتك النفسية لمزيد من الصعود الاجتماعى الذى

هو بمثابة إكسير الحياة للطبقة الوسطى ـ التى تلقفت هذا الأكسير بلهفة ـ وللوهلة الأولى تبدو شعبية «عمرو خالد» مبررة إذا قارنته بـ الأمريكى «ديل كارنيجى» الذى قدم وصفة السعادة ببساطة فى كتابه الأشهر «دع القلق وابدأ الحياة...» وبما أن كل الناس يعانون من القلق ويريدون أن يبدءوا الحياة فإن الكتاب مازال هو الأعلى مبيعًا بين كل الكتب فى العالم. إن سر نجاح عمرو خالد هو أنه يُجيب للشبان الصغار الذين يعانون من الفراغ على كافة المستويات إجابات على أسئلة كيف ترضى والديك؟، كيف تنجح فى عملك؟، كيف تتزوج؟ وكيف تكون سعيدًا فى الدنيا والآخرة؟.

وليست مصادفة أن يكون كل الدعاة من هذا النمط مهنيين ناجحين يريدون هداية أقرانهم لطريق جديد فى الحياة وعمرو خالد مثلاً محاسب تخرج فى تجارة القاهرة عام ١٩٨٨، وبعد الدروس فى نادى الصيد عرف طريقه إلى صالونات البيوت الإسلامية.. حيث استبدلت الكثير من الأسر حفلات الاستقبال العادية بحفلات غداء أو عشاء يعقبها درس دينى.. وغالبًا ما يكون الطعام مجلوبًا من أحد الفنادق الفاخرة، والداعية الذى يبدو بسيطًا يؤاكل الناس ويتعارف معهم بشكل شخصى يتحدث فى موضوع له علاقة بالحياة اليومية ـ الحب فى الإسلام ـ الزواج ـ تربية الأبناء ـ وهو يحصل على أجر فى النهاية؛ لأنه أدى خدمة لأشخاص قادرين على دفع مقابلها؛ ولأن جميع الحاضرين يؤمنون بأن الوقت يساوى نقوداً كما يقول المثل الأمريكى. ومن الصالونات الإسلامية التى غالبًا ما كانت تنظم برعاية وتدعيم من لوبى

المعتـزلات والأوسـاط المرتبطة بهن، انتـقل عـمـرو خـالد إلى درس أسبوعى فى مسجد الحصرى بحى العجوزة الراقى وهو المسجد الذى تديره ياسمين الحصرى المطربة المعتزلة والقائد الفعلى لمجموعة المعتزلات عبر الجمعية الخيرية الدينية التى تديرها.. الدرس الذى كان مخصصًا للنساء فقط أحدث أثرًا كبيرًا وكثير من الفتيات ارتدين الحجاب وأولياء الأمور الذين كانوا يعانون قلقًا كبيرًا من جنوح الفتيات المرفهات نحو أسلوب الحياة العصرية المتحرر شعروا براحة كبيرة وبدءوا فى تشجيع أبنائهم على المزيد من حضور الدروس. وعبر مئات المقابلات كان الآباء يؤكدون على صلاح «عمرو خالد» كداعية أخلاقى بعد أن امتنع الأبناء بفضله عن التدخين وتعاطى المخدرات وتعاطى الخمور وهى كلها أمور تثير أشد القلق لدى أولياء الأمور فى هذه الطبقة.

مع صيف ١٩٩٩ بدأ الجميع يدركون أنهم أمام نوع جديد من التدين الآمن والحميد. وهو آمن؛ لأنه لا يقود الأبناء إلى أى نوع من الصدام مع السلطة والمجتمع.. لقد انحسر ذلك الخطاب الزاعق العنيف والتكفيرى الذى أطلقه رجل مثل «شكرى مصطفى» زعيم تنظيم التكفير والهجرة والذى أُعدم عام ١٩٧٧ . إن عمرو خالد لا يشبه بأى حال من الأحوال ذلك الزعيم الذى كان يأمر أتباعه بهجر منازل الآباء الكفرة وترك الوظائف الحكومية وعدم الانخراط فى الجيش.. وتكفير كل من لا يؤمن بأفكار الجماعة. ما يدعو إليه عمرو يختلف كثيرًا أيضًا عن الأفكار التى أطلقها أعضاء الجهاد والجماعة الإسلامية حول ضرورة جهاد الشبان لإقامة الدولة الإسلامية

والانخراط فى عمل تنظيمى سياسى وهى الأفكار التى غالبًا ما كانت تقود متبعيها: إما إلى القتل فى المواجهات المسلحة، أو إلى قضاء السنوات بين جدران المعتقل، أو الانتقال للإقامة فى كهوف أفغانستان وكشمير ضمن حركة الجهاد الأممية الإسلامية. إن كل هذه الأفكار التى حملها أبناء الجنوب الغاضبين والشبان الناصريين السابقين الذين أجهضت النكسة أحلامهم فى مجتمع مثالى، والمهمشين فى المدن الكبرى. كل هذه الأفكار لا تناسب الطبقة الوسطى وشرائحها العليا.. التى لا تملك مصلحة حقيقية فى تغيير النظام القائم.. لكنها بقيت بحاجة إلى تدين من نوع خاص يدفعها للأمام ويكون بمثابة مشروعها الثقافى والسياسى الخاص.. هذا التدين هو الذى قدمه بصورة رائعة «عمرو خالد».. وبدرجة أقل من زملائه من الدعاة الجدد.

ورغم أن المكون الرئيسى للقلق لدى من هاجموا «عمرو خالد» كان فى البداية هو أن تكون لديه خطة لاختراق طبقة الصفوة. ولقد كان كاتب السطور ممن تبنوا هذه الفكرة للوهلة الأولى.. لكنَّ مزيداً من التأمل يكشف أن العكس هو الصحيح، وأن هذه الطبقة هى التى أفرزت هذا النوع من الدعاة ليقدموا لها تدينًا آمنًا ودافعًا إلى مزيد من الصعود الاجتماعى لا يعادى السلطة، ليس فقط لأنه لا يهاجمها ولكن لأنه يعمل يومًا بعد يوم على استقطاب المزيد من الدوائر المحيطة بها. والمطلوب ليس تغيير السلطة. ولكن إكسابها طابعًا دينيًا يمكن أن يملأ حالة الفراغ الروحى والفكرى والسياسى لديها، كما أنه يكسبها مزيدًا من الشعبية والشرعية ويطيل من عمرها بما يحقق مصلحة الجميع.

التحديث وقوى السوق

إن من يتأمل فى ظاهرة «عمرو خالد» مثلاً سيجد أن علاقته بالحداثة والعولمة لا تقف عند حدود الأزياء الأوروبية شديدة الأناقة، لكن الأمر يتعدى ذلك بمراحل، فأحد أهم وسائل تواصله مع جمهوره هى موقعه على شبكة الإنترنت والذى بات بعد سنوات من تأسيسه يفخر بأنه واحد من أهم خمسمائة موقع على مستوى العالم، وحين تم منعه من الخطابة فى الصيف الماضى فإن الآلاف من الرسائل الغاضبة كان يتم تبادلها عبر مجموعات المستخدمين، وفى المرحلة التالية لتطوره وبعد ذيوع شعبية الدروس التى كان يلقيها فى مسجد «المغفرة» ويحضرها الآلاف من الشبان الأثرياء الذين تسبب سياراتهم الصغيرة والغالية الثمن ارتباكًا مروريًا فى المدن والأحياء المجاورة.. فإن «عمرو خالد» أطل على مشاهديه عبر شاشات الفضائيات حيث عمل كمستشار إعلامى للشيخ صالح

كامل المستثمر السعودى، صاحب سلسلة قنوات الـ A.R.T وقناة اقرأ الدينية. وكوسيلة عابرة للحدود ومع شرائط الكاسيت والفيديو المنتشرة بدرجة أقل لم يصبح عمرو خالد فقط أول داعية إسلامى تليفزيونى ينتمى بالروح والأسلوب لمبشرى البروتستانتية الجديدة، لكنه أيضًا تخطى الحدود لتستقبله النخب العربية استقبالاً كبيرًا، وفى السعودية والكويت والإمارات العربية كان عدد من حضروا محاضراته يقدر بالآلاف، وكان السوق يطل كعنصر واضح فى العلاقة بين الشيخ ومريديه، ففى السعودية كان ثمن تذكرة الدخول لمحاضرة عمرو خالد ثلاثمائة ريال سعودى وفى الإمارات كان مائتى درهم إماراتى، ونفس الأمر فى الكويت أما فى الأردن فقد كان استقبال الملكة رانيا الـ «عبدالله» لعمرو خالد فى القصر الملكى ذروة الدلالة على العلاقة الوثيقة التى نجح عمرو خالد فى أن ينسجها بسرعة مع الأجيال الجديدة من النخب العربية.. وللوهلة الأولى قد تبدو فكرة جنى الأموال من وراء إلقاء الدروس والعظات بمثابة سبة واتهام بالتربح من وراء الدين، كما أنها قد تبدو مناقضة لفكرة الدور الرسالى لرجل الدين.. لكن التربح ليس الهدف الوحيد.. لماذا إذن المقابل المادى للمحاضرات ودروس البيوت وشرائط الكاسيت غالية الثمن؟! الإجابة هى أن الأخلاق الرأس مالية تمنح الشىء قيمته بمقدار ما دفع فيه من مال.. وحين يدفع الناس من أجل عظات دينية فهذا يزرع فى أنفسهم فكرة احتياجهم للدين، وإلا فلماذا دفعوا الكثير للحصول عليه. هكذا إذن يدخل الدين بقوة كعنصر من عناصر السوق، ولعل

هذا يمكن أن يفسر لماذا تحمس رجل الأعمال المصرى «محمد جنيدى» لتمويل برنامج إعلانى ظهر فيه «عمرو خالد» لأول مرة على شاشة التليفزيون المصرى عام ١٩٩٩. والإجابة ببساطة هى أن الذين سيشاهدون الداعية سيشاهدون قبله وبعده عددًا من الإعلانات عن منتجات رجل الصناعة الذى كان يراهن على شعبية الداعية، وهكذا يمكن لرجل الأعمال أن يتقرب إلى الله ويروج لمنتجاته فى الوقت نفسه، هكذا يمكن أن نفهم أيضًا سر إقدام محطة الـ L.B.C المسيحية اللبنانية على استضافة برنامج لعمرو خالد على شاشتها، وسر إقدام الكثير من المطبوعات والمجلات غير الدينية على توزيع شرائط كاسيت لعمرو خالد تحمل على أغلفتها إعلانات لمنتجات تجارية. الشرائط يمولها رجال أعمال حريصون على أن تصبح شعبية منتجاتهم مثل شعبية الداعية. منطق السوق والتوزيع الكبير هو الذى دفع عددًا كبيرًا من الصحف الفضائحية الصفراء لأن تنشر دروس عمرو خالد مطبوعة ضمن مادتها التحريرية ما دام ذلك سيزيد من توزيعها. وهكذا سنجد أن العلاقة تبادلية، الداعية يقدم خطابًا يمجد الثروة وفى درس الشباب والصيف مثلاً سنجده يدعو أتباعه إلى أن يكونوا أغنياء حتى يجذبوا مزيدًا من الناس للتدين، كما أنه يحث الشباب على عدم تضييع الوقت وضرورة تعلم اللغات والمهارات المختلفة وهو يدعو الشبان الأثرياء الذين يصطحبون أسرهم إلى منتجع مارينا السياحى الراقى إلى الاستمرار فى الذهاب إلى هناك مع تغيير الهدف من الزيارة ليصبح التأمل فى خلق الله.. بدلاً من ممارسة

الاصطياف العادى.. وهو يضرب مثلاً بنفسه حيث يؤكد أنه حريص على تناول العشاء فى المطاعم الفاخرة ولكن كيف تحول هذا لنشاط دينى؟ بأن تذكر الله وتردد التسابيح وأنت فى طريقك إلى المطعم. وفى سبيل تأكيد القيم والأفكار التى يؤمن بها يقع عمرو فى الخلط بين بعض الروايات الدينية وهو ما يأخذه عليه منتقدوه من رجال الدين التقليديين.. لكن مريديه يغفرون له ذلك محتجين بأن الغاية ربما تبرر الوسيلة وبأن المعلومات المغلوطة دينيًا حققت إنجازًا كبيرًا ربما لم تحققه المعلومات الصحيحة والمنسوبة إلى مصادرها.

وبشكل عام فإن السنوات التالية قد شهدت تطورًا كبيرًا فى الخطاب الذى يقدمه عمرو خالد. وفى الدور الذى بات يتخيل أن عليه أن يلعبه كداعية، وفى أعقاب خروجه من مصر واستقراره فى بيروت كقاعدة انطلاق جديدة، يمارس من خلالها مزيدًا من التواصل مع القطاعات المؤثرة فى النخب العربية، بدا الداعية الأكثر جماهيرية وكأنه يتحول من فرد إلى مؤسسة. وفى أعقاب مرحلة تقليدية كان يتحدث فيها لجمهوره عبر قناة اقرأ عن نساء بيت النبوة فى تكرار واتساق مع الموضوعات الأثيرة فى خطاب الدعاة الجدد. فى أعقاب هذه المرحلة بدا عمرو خالد من خلال برنامجه الجديد «صناع الحياة»، أقرب لدور المصلح الاجتماعى والقائد الشبابى منه لدور الداعية الدينى، وفى الحلقات الأولى من برنامجه أطلق «عمرو خالد» دعوته لجمهوره العريض كى يشاركوه فى مشروع ضخم يستهدف نهضة الأمة الإسلامية، وظهرت فى

خطاب الداعية مفردات جديدة مثل المشاركة، والمسئولية والحفاظ على الموارد، ومن خلال الحلقات التى انطلقت من أرضية أخلاقية تستهدف تفعيل المشاركة الإيجابية فى القضاء على التدخين وإدمان المخدرات ـ بدأت فكرة تكوين مجموعات من أصدقاء البرنامج والداعية فى الدول المختلفة على امتداد العالم، وبدا وكأننا أمام نشاط فعال لإحدى تكوينات المجتمع المدنى بمعناها الواسع والفضفاض. وهو ما بدا تفعيلاً إيجابيًا لفكرة الإسلام المجتمعى. وبدا أن هناك فهمًا جديدًا وتعاطيًا مع أفكار مثل الإصلاح، والتغيير المتدرج وهو ما بدا متسقًا مع التغييرات التى تشهدها المنطقة العربية والإسلامية. وبدأ الداعية يحدث جمهوره عن النهضة التى يهدف البرنامج لإحداثها فى العالم الإسلامى.

وفى حين كان الداعية متحمسًا لفكرة النهضة الحاشدة التى تنقل المجتمعات الإسلامية نقلات سريعة خلال عقود قليلة على غرار ما حدث فى الصين واليابان وماليزيا وأندونيسيا؛ فإنه وجد نفسه مطالبًا بأن يشرح أن النهضة تأتى من خلال تحويل طاقة الحياة إلى طاقة حركة، كما أنه بدا مصممًا على أن يذكر جمهوره بأن الإسلام ليس عبادات ولكن نجاح فى الحياة.

وإلى جانب التشجيع الذى يقدمه الداعية لجمهوره كى يبدءوا ويواصلوا رحلة النجاح فى الحياة سنجد أنه يُحيى قيمة غابت لسنوات طويلة جدًا عن العالم العربى، وبالذات عن أوساط الشباب فيه، هذه القيمة هى قيمة المشاركة. فهو بات يُعاتب جمهوره لأنهم

لم يسـهـمـوا سـوى بنصف مليـون فكرة فـقط يمكن أن تسـهم فى إحداث النهضـة فى العـالم العـربى. وهذه الأفكار تعنى أن الشباب جلسوا وفكروا ووضعوا أفكارًا تخيلوا أنها يمكن أن تُحدث نهوضًا فى مجالات مختلفة «الزراعة، الصناعة والسياحة.. إلخ». وأنهم صاغوا هذه الأفكار، ثم أرسلوها لبرنامج صناع الحياة، ثم جلسوا يشاهدون البرنامج وينتظرون أن تسهم أفكارهم فى إحداث النهضة، وهكذا سنجد أن عمرو خالد يحدد لجماهيره العريضة ٢٣ مجالاً تحتاج الأمة الإسلامية أن تنهض فيها، ويشجعهم على المشاركة ويؤكد لهم أنها صيغة إسلامية أصيلة والدليل أن الرسول (ﷺ)، أشرك أصحابه فى اتخاذ القرار فى غزوة بدر.

وهكذا بدلاً من أن كان كثير من الدعاة يشخصون آفات الأمة فى أمور، مثل خروج النساء للعمل، وابتعاد الناس عن المساجد سنجد أن داعية مثل عمرو خالد يؤكد لجمهوره أن آفات الأمة تتمثل فى عدم الرغبة فى المشاركة، وعدم القدرة على اتخاذ القرار، وعدم العلم بالإنترنت، وهو يستفيض فى شرح وإيضاح فوائده ومدى تخلف المسلمين فى استخدامه، وإلى جانب الأنشطة الاجتماعية الخيرية والنصف مليون فكرة التى تهدف لإنهاض الأمة فى مجالات عدة مثل الزراعة، والصناعة... إلخ.

سنجد أننا إزاء مشروع لبرنامج حكومة جديدة يمكن أن نسميها حكومة صناع الحياة، وهو ما يعنى أن واحدًا من أكثر وجوه الحركة الإسلامية شعبية قد هجر ما كان يدعو له خلفاؤه فى التنظيمات

الراديكالية الرافضة والعنيفة من أفكار ثورية وانقلابية، وهجر أيضًا جماعته الأصلية (الإخوان المسلمون) المكبلة بدكتاتورية شيوخها والمكبلة أيضًا بالحظر والحصار والخوف الأمنى.. هجر هذا كله ليصل لصيغة حديثة وعصرية.. تتماشى مع أحدث التطورات السياسية على مستوى العالم (تفعيل المجتمع المدنى) هذا على مستوى المضمون. أما على مستوى الشكل فسنجد أنه يتواصل فى دعوته هذه مع جمهوره العريض عبر شبكة الإنترنت حيث يتلقى عبرها أفكار النهضة، ثم عبر الأقمار الصناعية الفضائية حين يذيع على جمهور برنامجه نتائج ما توصل إليه. ويطلق المزيد من الأفكار الجديدة. وإذا عدنا لمضمون خطاب الداعية وطبيعة جمهوره سنجد أنه من الطبيعى أن تكون الدعوة للنهضة على أرضية من الليبرالية الاقتصادية تتماشى مع الشكل الليبرالى السياسى الذى اتخذه الداعية سبيلاً لإشراك جمهوره فى مشروعه للنهضة، وهكذا سنجد أن أولئك الذين تعاملوا مع الداعية الشاب بمزيج من الاستخفاف والرغبة فى التحقير مخطئون.. والمشايخ الكلاسيكيون الذين وصفوا عمرو خالد بأنه (موضة) لم يروا سوى جانب واحد من الصورة، فإلى جانب السطحية، والتفاهة وانعدام الثقافة بمعناها الشامل وهى كلها سمات يتسم بها «عمرو خالد» بالفعل على الأقل فى سنواته الأولى. إلى جانب هذا لابد أن نرصد تطوراً فى خطابه ربما بمساعدة آخرين يجعلنا نرى ملامح مشروع سياسى اقتصادى دينى قوامه تديين قوى السوق على أرضية ليبرالية سياسية، وهو مشروع يقترب فى بعض ملامحه من مشروع

الإسلام الحضارى الذى صاغه فى ماليزيا منذ ربع قرن مفكر مثل «مهاتير محمد» ويصوغه فى المنطقة العربية الآن داعية مثل «عمرو خالد» !

البروتستانتية والإخوان !

إن العـديد من المظاهـر التى تحـيط بالدعـاة الجـدد يمكن أن تعطى انطبـاعـاً بأن هذا التـيـار من الدعـاة يمكن أن يكون بمثـابة بروتستـانتية جديدة فى الإسـلام فالدعاة تحرروا من الزى التقليدى لرجـال الدين سـواء كـان هـذا الزى هو الجـبـة و(الكاكـولة) اللذان يميـزان علمـاء الأزهـر ووعـاظ الأوقـاف..أو الجلبـاب والعبـاءة بشـتى تنويعـاتهمـا وطرازهمـا من الجلبـاب القصيـر البـاكستانى أو الجلباب السـعـودى.. أو حـتى ذلك الجلبـاب الفـاخـر الذى كـان يشـبـه فى تفـصيلتـه فـقط جـلابيب الفـلاحين فى الريف المصـرى والذى كـان يرتديه الداعـيـة الأشـهـر مـحـمـد مـتـولى الشـعـراوى. ورغـم تنوع الجلبـاب إلا أنه كـان يحـمل رسـالة واحـدة، وهـى أن رجل الـدين لا يشبه العـاديين من النـاس.. لقد انتهى عصـر الجلبـاب وظهر الدعـاة الجـدد على شـاشـات الفـضـائيـات بحلل أنيـقـة تحـمل توقـيع كبـار

مـصـمـمـى الأزياء العـالميين.. الدعـاة الجـدد أيضًـا قلدوا وعـاظ البروتستانتية الجديدة فى استخدام التليفزيون والقنوات الفضائية فى الوصول إلى الناس.. ليس هذا فقط بل إنهم لم يظهروا بالمظهر السـاكن والمتجـمد الذى يظهـر به الشيـوخ التقليـديون على شـاشة التليفزيون المصرى؛ بل إنهم ظهروا فى برامج حوارية يستضيف من خلالها الداعية الشباب ويطرح عليهم الأسئلة ويستمع إلى خبراتهم فى التوبة والهداية. وملمح ثالث من مـلامح البروتستانتية الجديدة يمكن أن نجده فى خطاب تمجيد الثروة أو على الأقل عدم ازدرائها فـضــلاً عن هذا التـأييـد الضـخم والاحـتـضـان من رجـال المال والأعمال.. هذه إذاً ملامح البروتستانتية الجديدة كما ذهب البعض ومن هؤلاء الباحث السويسرى «باتريك هنى» فى تحليله لمجموعة المقالات التى نشرتها روزاليوسف حول ظاهرة الدعاة الجدد. حسنًا ولكن البـروتسـتـانتـيـة الجديدة حين ظهـرت فى فـرنسـا فـى أعـقـاب الثـورة الـفـرنسـيـة، ثـم فـى الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة بعـد ذلك فى بدايات القـرن كـانت تتضـمن تطويرًا للمضـمون قبل الشكل وهو ما لم يفـعله الدعـاة الجـدد بمختلف تنويعاتهم. والسـمـة الغـالبـة على خطاب هؤلاء أنهم سلفـيـون للغـاية وحـتى إذا ركـزوا عـلى الوجـه السـمح للدين فهم لا يملكون الحق فى الاجتهـاد ولا القـدرة عليـه.. والكثير منهم يعلنون أن هدفهم هو تغيير المجتمع ليصبح مجتمعًا إسلاميًا عبر تغيير الأفراد. والداعية خالد الجندى مثلاً يرى أنه وزمـلاءه يتـجـهـون إلى أبناء الصـفـوة لأن هؤلاء هـم الذين يملكون

أدوات التغيير(*) فى حين يرى الداعية «صفوت حجازى» وهو واحد من الجيل الثانى من الدعاة الجدد أنه وزملاءه يريدون تغيير المجتمع بطريقة أخرى بعد أن فشلت أفكار العنف والخوارج فى إقامة الدولة الإسلامية، وبشكل مباشر فإن هذا قد يجعلنا نصل إلى نتيجة واحدة وهى أن هؤلاء الدعاة الذين يشبهون دعاة البروتستانتية التلفزيونيين فى الولايات المتحدة من حيث الشكل لا يقدمون أى تطوير فى الخطاب الإسلامى باستثناء تمجيد الثروة وهذه أفكار بدورها كانت مطروحة عبر رجال دين كثيرين على مدار التاريخ الإسلامى حسب تقلبات السياسة وأحوالها.

(*) حوارات مع المؤلف.

الموجة الثانية

مثل أمواج متتالية أزيل من أمامها حائط صد الأمواج توالت موجات ومظاهر الدعوة الجديدة فى مصر، ومع حلول عام ٢٠٠٢ كان بإمكان أى باحث مهتم أن يرصد ظهور الموجة الجديدة من الدعاة الجدد فى مصر، ولعل الفارق الزمنى الضئيل بين ظهور الجيل الأول وبين ظهور نجوم الجيل الثانى يشى بأن الفارق العمرى بين الجيلين غير موجود، بل إن بعض الدعاة الذين عرفوا طريقهم للانتشار عبر الوسائل المختلفة مثل الفضائيات وشركات الكاسيت وبرامج الفيديو.. بعض هؤلاء يكبرون دعاة: مثل «عمرو خالد» و«خالدالجندى» فى السن، بل إن بعضهم يمارس الدعوة قبل أن يمارسها «عمرو خالد، والجندى، والحبيب على» لكنهم بالفعل كانوا جيلاً ثانيًا، والتفسير هو أن شركات الكاسيت التى قدمت مجموعات «عمرو خالد» مثلاً أدركت أن هذا النوع من الدعوة

والموضوعات التى يتم معالجتها فى الشرائط تلقى رواجًا كبيرًا.
وهكذا بمجرد خروج «عمرو خالد» من مصر، وتزايد الإقبال على مجموعات شرائطه... كانت شركة «النور»، والتى قدمت «عمرو خالد»، تسارع بتقديم العديد من المجموعات لدعاة جدد وقدماء، وهكذا ظهرت مجموعة نساء بيت النبوة للشيخ «صفوت حجازى» وفى الوقت نفسه الذى كانت فيه ماكينات الطبع والتغليف والتوزيع تضع شرائط «صفوت حجازى» وزملائه بجوار شرائط الجيل الأول كانت قناة اقرأ تسلط عدسات كاميراتها على داعية مثل «صفوت حجازى»، ثم سعت له القناتان المصريتان الخاصتان «دريم»، «المحور» وإلى جانب جمهوره القديم اكتسب «صفوت حجازى» جمهورًا جديدًا من الشبان والشابات الذين لم يكتفوا باللقاء بعمرو خالد عبر قناة اقرأ أو عبر مجموعات شرائطه وكتبه التى لم يكتبها _ تفريغ لمحتوى الشرائط _ بات واضحًا أن هؤلاء بحاجة إلى داعية يلتقون معه لقاء مباشرًا فى المسجد.. وهكذا ظهر الجيل الثانى من الدعاة كان «صفوت حجازى» أبرز الأسماء وتتالت بعد ذلك أسماء أخرى مثل د. «راغب السرجانى» و«خالد عبدالله» و«أكرم رضا»، ولكن «صفوت حجازى» كان أبرز الأسماء ورغم أنه لم يتحول لمنافس لـ «عمرو خالد» لأسباب لها علاقة بسنه وطريقة أدائه وتكوينه النفسى والثقافى المختلف إلا أنه يبقى حالة مهمة فى إطاره.

ولعلنا إذا عدنا إلى الجيل الثانى من الدعاة فسنجد أن الباحث المهتم بظاهرة مثل الدعاة الجدد قد يفرح بظهور الجيل الثانى

فـرحـةً كـبـيـرةً.. لماذا؟.. لأن ظهـور هـذا الجـيـل قـد أثبت صـحـة مجموعة من الافتراضات المهمة التى افترضها الباحث وهو يتلمس طريقه لدراسـة الظاهرة فهناك خصائص مشتركة سواء فى طبيعة تكوين كل أفراد الجيل الأول والثانى فهؤلاء أيضًا مهنيون لم يتلقوا تعليمًا دينيًا تقليديًا كما أن هناك تشابهًا فى وسائل الانتشار نفس الفضائيات ونفس شركات الكاسيت، ومن ناحية مضمون الخطاب وأسلوبه فالجميع يهتمون بالجوانب الاجتماعية والتاريخية التى تشكل مادة قص جذابة، ففى الوقت الذى كان «عمرو خالد» يخصص حلقات برنامجه «ونلقى الأحبة» من بيروت للحديث عن حياة زوجات الرسول (ﷺ) كان صفوت حجازى يصدر مجموعة شرائطه «نساء بيت النبوة» فى حين كان داعية آخر هو د. «راغب السرجانى» يصدر مجموعة شرائط بعنوان «تاريخ الأندلس» وفى الوقت الذى أنتجت فيه شركة «سنا الشرق» مجموعة من برامج الفيديو لـ «صفوت حجازى» عن الخطبة والزفاف والزواج فى الإسلام كانت تصدر مجموعة أخرى بعنوان «الحب فى الإسلام» للشيخ «حازم أبو إسماعيل» وفى حين كانت شركات أخرى تصدر شرائط بعنوان «الخطوبة والزواج» لداعية آخر مختلف من حيث التكوين وعمق الثقافة هو «أكرم رضا».. وهكذا بدا للوهلة الأولى أن هناك نوعًا من التشابه فى الموضوعات ومضمون الخطاب وبدا ثمة حرص على الابتعاد عن الجوانب السياسية والفقهية المعقدة وإقبال على الموضوعات ذات العلاقة الوثيقة بالمجتمع والتى من شأنها أن تحول الدرس الدينى إلى دليل عملى للحياة، وأن تحول

الداعية نفسه إلى مرشد اجتماعى للشباب يهديه إلى أفضل الطرق للحب والزواج ومعاملة الأصدقاء وفقًا للضوابط الشرعية، وفضلاً عن هذا نجد أن بعض الدعاة قد لعب دور المرشد الاجتماعى بشكل مباشر مثل «أكرم رضا» الذى تخصص فى الاستشارات النفسية والأسرية و«أحمد عبدالله» الذى قاد فريقًا متخصصًا للرد على أسئلة ملايين الشباب النفسية والاجتماعية عبر موقع «إسلام أون لاين » وإن كان عبدالله ـ ومعه حق ـ يرى أنه ليس داعية ولكنه طبيب نفسى ذا مرجعية إسلامية، وهكذا ظهرت مع الجيل الثانى سمة جديدة ميزت الدعاة الجدد وهى التخصص، فالبعض يتحدث فى المشكلات الاجتماعية، والبعض يتحدث فى التاريخ وفيما بعد ظهر آخرون يتحدثون فى الطب النبوى والحجامة وموضوعات أخرى مختلفة ولكن هذا سيكون موضوعًا لبحث منفصل. وإذا عدنا لأبرز دعاة الجيل الثانى «صفوت حجازى» سنجد أن ملامح تكوينه تتشابه مع ملامح تكوين الكثير من الدعاة الجدد وإن كان يحمل بعض الاختلاف فالداعية الأربعيني العمر عرف طريقه إلى الشهرة متأخرًا وهو أيضًا رجل أعمال ناجح يمتلك شركة لتقسيم الأراضى وأعمال المساحة أما تعليمه فهو مثل تعليم الكثير من زملائه، تعليم مدنى حيث درس الجغرافيا فى كلية الآداب، وهو يبرر اهتمامه بالدين بنشأته فى أسرة أزهرية حيث كان والده من علماء الأزهر الشريف، وحين توفى والده بقى على علاقة بنوة روحية بزملاء والده الشيوخ «محمد الغزالى» و«صلاح أبو إسماعيل» و«محمد المطيعى» لكن

المحطة الأهم وذات الدلالة فى حياة داعية جديد مثل «صفوت حجازى» كانت على حد روايته لى بعد سفره للسعودية فى عام ١٩٩٠ حيث التحق بالعمل فى أمانة المدينة المنورة كمهندس للمساحة. وهناك كان عليه أن يقضى أوقات فراغه الطويلة فى الاستماع لدروس العلم التى يلقيها العلماء بجوار أعمدة المسجد النبوى الشريف، حيث مازال يسود أسلوب التعليم التقليدى القديم... الشيخ وحلقة التلاميذ، وهو يقول إن تلقى العلم بهذه الطريقة كان قراره منذ البداية، ولم يكن هذا بداية علاقته بالدعوة، حيث كان يلقى الدروس فى بعض المساجد قبل سفره، وأغلب الظن أنه كان متعاطفًا وربما عضوًا فى جماعة الإخوان المسلمين وهو ما يتشابه فيه مع «عمرو خالد» لكن «عمرو خالد» سرعان ما انقطعت علاقته التنظيمية بالجماعة بعد لمعان اسمه كداعية جديد، وقد سألته مباشرة حول مدى علاقته بأية جماعة من جماعات الإسلام السياسى فنفى وقال: إن أية جماعة لا تستطيع أن تدعى أنه تابع لها. وأعتقد أن ما ذكره صحيح وإن كانت التبريرات مختلفة، المهم أن «حجازى» انقطع لتلقى العلم فى المدينة المنورة ثمانى سنوات متتالية لم يحصل خلالها على إجازة واحدة وبفضل أسلوب التعليم غير التقليدى كان «حجازى» يتلقى العلم عن المشايخ السعوديين ليس فقط فى المسجد ولكن فى منازلهم أيضًا وهكذا حصل خبير التخطيط الجغرافى على إجازة فى رواية الحديث وهو ما يتشابه فيه مع داعية مثل «الحبيب على» وهو أيضًا مثل «الحبيب على » تلقى العلم على أستاذ مباشر يعتبره

مـرشـده الروحى والـعلمى وهـو الشـيخ "مـحـمـد عطيـة سـالم" وهو مـصـرى تجنس بالجنسـيـة السـعـودية ويشـغل الآن منصب قـاضى قضـاة المدينة المنورة وهكذا عدد لى «صفوت حجازى» أسماء علماء كثيرين حصل منهم على إجازات كثيرة فى الفقه والحديث.

«حـجـازى» الـذى بدا مـسـتـفـزاً من فكرة أنه بديل لـ «عـمـرو خـالد» قـال إنـه يمارس الدعـوة وله جـمـهـوره قـبل أن يظهـر «عـمـرو» على الإطلاق بل أن «عـمـرو» نفـسـه كان من بين الشـبـان الذين يحضـرون دروسه فى مسجد الحصرى فى حين كان حجازى يخطب الجمعة فى المسـجد نفسـه على اعـتـبـار أن من يلقـى خطبـة الجـمـعـة هو الأكـثـر علماً... «حـجـازى» الذى بدأ بإلقـاء دروسـه فى مـسـجـد «دعـوة الحق» بحى الدقى الراقى... يلقى درسـًا آخـر فى أحـد مـسـاجـد حى الهـرم ويلقى الدرسان إقبالاً جماهيريًا كبيرًا. أما إذا كان المعيار هو الظهور فى القنوات الـفـضـائـيـة فـإن «حـجـازى» ظهـر قـبل «عـمرو خـالد» على شاشـة قناة اقرأ بشهـر كامل! لماذا بدا وكـأنه أحد بدلاء «عمرو خالد» إذن؟. يجيب «حجـازى» منفـعـلاً: «ربما لأن مجـمـوعة شـرائطى ظهـرت بعـد شـرائطـه وهـذا أيضـاً له سـبب فـأنـا لم أكن أفكـر فى مـسـألة الشرائط هذه ولكن الشركة التى تصدر شرائط «عمرو» تعاقدت معى ثم أخروا صدور المجموعة ثلاث سنوات وأصدروا شـرائط عـمـرو.. لماذا؟ يجـيـب: «ربما تنظر الشـركة لمسـألة الربح التـجـارى لكن أنا لا أهتم بهذه الأشياء».

ملحـوظة: «دون أى تعمـد للإسـاءة للدعـاة الجـدد فـإن المشـهـد السـابق يتكرر كـثـيـرًا فى عـالم الغناء والموسـيـقى، ضـرب مطرب

لحساب مطرب، الصراع على كلمات الأغانى والملحنين، والذى ينقلب فى عالم الدعوة إلى صراع على موضوعات الدروس».

«صفوت حجازى» بتكوينه الكلاسيكى يبدو متعاليًا على فكرة المنافسة مع «عمرو خالد» ويقول: اسألوا «عمرو خالد» من شيوخه الذين تعلم منهم؟! ثم ارجعوا للمصادر التى اعتمد عليها فى إعداد دروسه عن زوجات النبى. ستجدون أن مجموعتى مصدر أساسى لما يقو له، ثم أنا لا أهاجم أى شخص يتبنى الإسلام مهما كانت أخطاؤه».

مثل كل الدعاة الجدد الذين سألتهم السؤال نفسه جاءت الإجابة متشابهة. كان السؤال «هل يتعمد الدعاة الجدد جذب الجمهور من الطبقات الثرية؟» يجيب حجازى : «جمهورى من الأغنياء والفقراء وأنا ألقى درسًا فى مسجد «دعوة الحق» وهو فى منطقة راقية ولكن هناك أناسًا يأتون من الأحياء الفقيرة ليسمعوا الدرس والعكس صحيح حيث ألقى درسًا آخر فى مسجد الأنصار الذى يقع فى الجزء العشوائى من الهرم وأعرف أن من بين الجمهور من يأتى من الزمالك والمهندسين.. هؤلاء لهم احتياجات وهؤلاء لهم احتياجات... الشخص الذى يأتى من المهندسين مثلاً يعانى من وقت الفراغ ويأتى ليسألنى كيف أشغل وقت فراغى، فى حين أن الفقير يشكو من أنه يعمل ٤٨ ساعة فى اليوم ولا يجد وقتاً لأى شىء آخر... هذا له أسلوب وهذا له أسلوب... أنا ضد تقسيم الجمهور تقسيمًا طبقيًا».

ما أسعدنى فى اكتشاف الجيل الثانى من الدعاة الجدد هو أنى تأكدت أننى أمام ظاهرة تستحق الاهتمام والدراسة. كان الجيل الثانى بملامحه وأسلوبه وتنافس أفراده مع بعضهم البعض ومع الآخرين على الموضوعات والجمهور والفضائيات ـ يؤكد الفرضية التى افترضتها مُنذ البداية. نحن أمام التجلى الأخير للظاهرة الإسلامية، لا سياسة مباشرة، ولكن توغل تلقائى ومنظم فى آن واحد فى كافة مناحى الحياة الاجتماعية.

أحاول أن أنزل الداعية الأقل شهرة من حالة التعالى على المنافسة مع "عمرو خالد" وأسأله: يقولون إن التشابه بينك وبين "عمرو خالد" ليس فقط فى الموضوعات ولكن فى الأسلوب أيضًا.

ينفعل مجيبًا: «هو متأثر بأسلوبى، ولكن أنا لم أتأثر به... أنا متأثر بأسلوب شيخى "عطية" رحمه الله قاضى المدينة المنورة».

«عمرو خالد» أيضًا قال إنه تأثر جدًا بأسلوب شيخه السلفى "عزت الأمير" وهنا أسجل لنفسى ملاحظة أن الدعاة الجدد يعيدون تقديم بضاعة السلف القديمة فى عبوات حديثة... فيما عدا ذلك لا تجديد سوى فى أسلوب العرض إلا إذا اعتبرنا أن السكوت عن بعض الموضوعات والتركيز على البعض الآخر هو بمثابة تجديد فى الخطاب.

الثروة مقابل الدعوة

لعل من أهم ما يلفت النظر هو ذلك الاختلاف فى الموقف من الثروة التى يمكن أن يجنيها الداعية جراء عمله بالدعوة بين أفراد الجيلين الأول والثانى، أو هكذا بدا لى. ففى الوقت الذى تحول فيه الداعية «عمرو خالد» إلى مليونير حقيقى من حصيلة بيع شرائطه وكتبه والمقابل الضخم الذى يتقاضاه من قناة اقرأ نظير احتكارها له.. فضلاً عن الهبات المباشرة التى كان ومازال يتلقاها من رجال الأعمال والأثرياء العرب نظير الدروس التى يلقيها فى القصور، وفى الوقت الذى يجتهد فيه داعية مثل «خالد الجندى» فى تأصيل فكرة الثروة مقابل الدعوة فقهيًا ويجتهد فى التدليل على فضائل الثروة فى الإسلام.

سنجد أن الدعاة الذين ظهروا فيما بعد بدوا أكثر راديكالية وتعففًا فى مسألة الثروة هذه، أو لعل هذا هو حال الذين اهتممت

بدراسة حالتهم مثل «راغب السرجان» مدرس الطب بجامعة القاهرة وهو طبيب يمارس المهنة بشكل يومى ويبدو متحفظًا تجاه مسألة الثروة هذه وأيضًا مثل «صفوت حجازى» الذى عبر عن رفض شخصى قاطع لفكرة الثروة مقابل الدعوة وقدم لى رأيًا فقهيًا رأيت أنه من المفيد إثباته، فهو يعتبر أن تاريخ السلف وعلماء الإسلام لم يثبت أن أحدًا من الأئمة قد اغتنى من وراء الدعوة، بل إن كلاً من الإمامين مالك وابن حنبل قد حَرّما أخذ الأجر عن العلم، ورغم أن طائفة من العلماء قد أجازوا للعالم أن يحصل على أجر فى مقابل تعليم العلوم الشرعية للناس؛ إلا أن معظمهم قد أجمعوا على أن أخذ الأجر لا يجوز إلا بشروط مثل: أن يكون العالم متفرغًا للعلم وليس لديه مصدر دخل آخر وفى هذه الحالة فإنه لا يحصل إلا على ما يكفل له البقاء على قيد الحياة أو بقدر ما يقتات به على حد تعبير العلماء.

من الشروط أيضًا ألا يكون للعالم مصدر دخل آخر بخلاف الدعوة أما إذا كان لديه مصدر دخل آخر فإن عليه أن يمارس الدعوة تطوعًا وتقربًا من الله تعالى ويضيف «صفوت حجازى» - الذى يبدو متشبثًا بملامح تجعله مختلفًا عمن سبقه من الدعاة - أنه شخصيًا يتحفظ على فكرة تكوين ثروة من وراء الدعوة ورعًا وتقربًا من الله عز وجل.

من الطب إلى تاريخ الأندلس

كانت الحالات التالية التى صادفتها من الدعاة الجدد تؤكد لى أن ملامح الظاهرة متشابهة، وكانت حالة د. «راغب السرجانى» أيضًا نموذجًا مثاليًا للفكرة التى أريد التدليل عليها، فالداعية الشاب الذى يماثل «عمرو خالد» فى السن تقريباً كان زميلاً له فى جامعة القاهرة وهو أيضًا خارج من عباءة جماعة الإخوان المسلمين، وإذا شئنا مزيدًا من الدقة واضعين فى الاعتبار ـ أن جماعة الإخوان جماعة محظورة لا يحمل أعضاؤها لافتات على صدورهم تؤكد انتماءهم لها ـ سنقول إنه خارج من عباءة الجماعة الإسلامية فى جامعة القاهرة التى هى الذراع الطلابى للإخوان المسلمين وهو من أبناء جيل الثمانينيات فى جماعة الإخوان، وهذا الجيل هو الذى شكل المنتمون له مع الإسلاميين المنتمين لجيل التسعينيات ملامح حركة الإسلام المجتمعى أو إسلام مابعد

التنظيمات إن شئت أو الإسلام الفردى التى تبدو من ناحية انتشارها وتجليها فى كافة نواحى الحياة، وقدرتها على جذب الجماهير الغفيرة والعادية، تبدو هذه الحركة مثل وحش خارق ينمو بسرعة مذهلة ويلتهم ما حوله من أشكال التدين التقليدى وربما التنظيمى أيضًا، فاثنان من أبناء هذا الجيل هما اللذان أسسا شركة «النور للإنتاج الإعلامى» وبتقنية حديثة ووعى اقتصادى وذائقة فنية، قدمت هذه الشركة كل الدعاة الجدد من «عمرو خالد» إلى «خالد الجندى» ومن «صفوت حجازى» إلى «راغب السرجانى» لـ «حاتم آدم» الذى تخصص هو أيضًا ـ وفق قاعدة التخصص ـ وقدم مجموعة بعنوان «تربية الأطفال فى الإسلام» فضلاً عن أن الشركة قدمت ألبومات مطبوعة لكثير من فرق الموسيقى الإسلامية التى ينتمى أعضاؤها لنفس الجيلين والتى تعد فى حد ذاتها أحد أبرز مظاهر التطور فى الحركة الإسلامية وأحد أبرز علامات الانتقال من السياسى إلى المجتمعى، وأحد أبناء هذا الجيل أيضًا هو الذى استغل خبرته الإعلامية فى عدد من التليفزيونات العالمية ليؤسس شركة «سنا الشرق» التى كانت أول شركة تقدم «عمرو خالد» مصورًا عبر شرائط الفيديو فى برنامج ذى طابع جماهيرى يستضيف فيه عددًا من نجوم الفن والكرة ليتحدثوا عن تجاربهم فى التوبة والهداية وكان هذا البرنامج هو بداية «عمرو خالد» مع عالم التليفزيون. وفيما بعد قدمت الشركة دعاة آخرين مثل «صفوت حجازى» و«حازم أبو إسماعيل» فى برنامج مشابه، وأبناء هذا الجيل هم الذين أعطوا موقع «إسلام

أون لاين» طابعه المميز والذى جعله تجليًا آخر من تجليات الإسلام من أجل المجتمع أو الإسلام من أجل الحياة كما يقول شعار الموقع.

المنافسون
خالد الجندى.. الفتوى مقابل أجر!

إن المتتبع لظاهرة الدعاة الجدد فى مصر لا يسعه إلا أن يتوقف بمزيد من الدهشة أمام المسار الذى اتخذته الظاهرة سواء من حيث ظهور نجوم جدد فى مجال الدعوة خاصة فى السنوات التى شهدت نمو الظاهرة من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠٣، أو من حيث طبيعة العلاقات التنافسية بين الدعاة الجدد؛ حيث يتشيع لكل داعية فريق من رجال الأعمال والمؤيدين والجمهور، بالإضافة لقناة فضائية تتبنى الداعية وتستخدمه كعامل جذب تجارى تجذب به المشاهدين وأموال الإعلانات. وإذا اتخذنا أرقام المبيعات وكثافة الحضور الإعلانى وعدد مرتادى الدروس مؤشرًا؛ فلا شك أن «عمرو خالد» يحتل المركز الأول فى السباق لكن هذا لا يمنع من

ظهور منافسين لا يتميزون فقط باختلاف المؤيدين أو طبيعة الجمهور ولكن أيضًا فى طبيعة الخطاب والدور، وربما كانت تحالفات رجال الأعمال وتوازنات السياسة تلعب دورًا أيضًا فى إذكاء هذا التنافس وفى إطلاق المزيد من اللاعبين فى الساحة .

وفى غضون عام ٢٠٠٠ كان المتنافسان الرئيسيان فى ساحة الدعوة الجديدة فى مصر هما «عمرو خالد» ومنافسه «خالد الجندى» وبخلاف «عمرو خالد» فإن «خالد الجندى» هو خريج المؤسسة الدينية التقليدية، وحتى عام ١٩٩٨ لم يكن الجندى سوى واعظ أزهرى فى وزارة الأوقاف لا يتعدى راتبه مئة وثلاثة جنيهات مصرية، إلا أن الداعية الثرى الذى يقطن فى حى المهندسين ويقتنى سيارة مرسيدس من طراز العام نفسه لا ينكر أن الدعوة إلى الله لعبت دورًا كبيرًا فى ثرائه. وهكذا وفى شهر سبتمبر ٢٠٠١ وبعد سلسلة من المقالات التى نشرتها فى مجلة «روز اليوسف» عن الداعية «عمرو خالد» أحدثت دويًا كبيرًا وقتها وجدت الداعية «خالد الجندى» فى طريقى. وفى وقت كانت الظاهرة فيه تتشكل والمعلومات عن نجومها قليلة جدًا، وبعد عدة مؤشرات بدا لى أن مقابلة «خالد الجندى» ضرورية للإجابة على عدة تساؤلات عن علاقة الثروة بالدين، «خالد الجندى» يتميز بصراحة غير محدودة ربما كان سببها رغبته فى لفت الأنظار بعد أن تركزت على زميله «عمرو خالد» بعد الهجوم الذى شنته عليه مجلة «روز اليوسف» والذى خلق حالة من الهجوم والدفاع شاركت فيها صحف ومجلات عدة.

«خالد الجندى» الذى يخطو للعقد الرابع من عمره لم يكن حتى أواخر التسعينيات سوى خطيب لأحد المساجد الصغيرة فى حى السيدة زينب ذى الطابع الروحى المعروف، وبسبب خفة ظل طبيعية يكاد ينافس بها نجوم الكوميديا الجدد، وموهبة متميزة فى الإلقاء؛ سطع نجم الواعظ الشاب فى حى السيدة زينب الذى شهد سنوات طفولته وشبابه، لكن اكتساب إعجاب المصلين فى أحد المساجد الصغيرة لا يكفى لتحقيق كل هذا القدر من الشهرة والنجومية، فالدخول إلى عالم الصفوة يستدعى ترشيحًا من أحد أعضاء نادى الصفوة، وهو ما تحقق فيما بعد حين بذل الشاب ذو الشعبية مجهودًا كبيرًا فى مساندة أحد كبار السياسيين فى أثناء إعادة ترشيح نفسه فى حى السيدة زينب.

بعدها وفى غضون عام ١٩٩٩ وكما قال لى «خالد الجندى» نفسه فى حوار لم ينشر تم ترشيحه ليخلف «عمرو خالد» فى الخطابة فى مسجد نادى الصيد بعد أن منع عمرو من الخطابة نتيجة لتطرقه لموضوعات تثير الحساسية. وفى حواره معى اعتبر «خالد الجندى» الذى كان مأزومًا بسبب قرار منعه من الخطابة فى المساجد، أن سنوات خطابته فى مسجد نادى الصيد هى أزهى فترات حياته وبصراحة تميزه عن غيره اعتبر أن العلاقات والأعمال كانت تسير بشكل جيد جدًا. حيث أسس دار الوفاء الإسلامية للطباعة والنشر ثم أعقبها بمشروع الهاتف الإسلامى الذى يعتمد على فكرة تقديم الفتوى مقابل أجر مادى، حيث يتصل من يرغب فى الحصول على فتوى برقم هاتف خاص ويترك

سؤاله.. وبعد ٢٤ ساعة يتلقى الإجابة على السؤال. الفتوى فى هذه المرة ليست عملاً خيريًا أو دورًا طبيعيًا يقوم به العالم تجاه مجتمعه، ولكنها فتوى مدفوعة الثمن حيث إن أرقام التليفونات التى يتم استقبال الأسئلة عليها هى أرقام ذات تعريفة خاصة تختلف عن تعريفة التليفون العادية والمكسب يتم تقسيمه بين أصحاب المشروع وبين هيئة التليفونات المصرية.

وفى الموعد الذى حدده لى «خالد الجندى» لإجراء الحوار فوجئت بمجموعة من الضيوف، ولم يكن هؤلاء سوى شركائه فى المشروع وكان الشريك الرئيسى رجل أعمال شاب عرفت أثناء الجلسة أنه نجل الدكتور عصمت عبد المجيد وزير الخارجية والأمين العام السابق لجامعة الدول العربية ومجموعة من أساتذة الأزهر الذين يتولون الإجابة على أسئلة الجمهور وكان على رأسهم د. عبد المعطى بيومى عميد كلية أصول الدين والعضو المعين فى مجلس الشعب، ورغم الضجة التى ثارت فيما بعد حول مشروع الهاتف الإسلامى من زاوية كونه حلالاً أو حرامًا وهى الضجة التى أشعلها تصريح الدكتور نصر فريد واصل مفتى الجمهورية الرسمى وقتها بأن الفتوى مقابل أجر حرام إلا أن المعنى الأكبر لم يكن واضحًا.

وبعيدًا عن الاتهامات الأخلاقية مثل التربح بالدين وبزنس الفتوى وخلاف ذلك فإنى أعتقد أن المشروع بالصورة التى ظهر عليها وبالشخوص الذين شاركوا فيه كان يرسم أحد أهم ملامح الدعوة الدينية الجديدة فى مصر وهى ارتباطها باقتصاد السوق..

لا يوجد شىء مجانى.. أو كما يقول المثل الإنجليزى «**لا يوجد غذاء بالمجان**»، وإذا كان الدين يحقق لك كفرد متعة شخصية ويساعدك على مزيد من التوازن النفسى والاستقرار فى حياتك فإن عليك أن تدفع مقابلاً لذلك.

وفضلاً عن المشروعات التجارية الخاصة والمرتبطة بالدعوة مثل شركة السندباد للكاسيت التى يملكها «عمرو خالد» ومشروع الهاتف الإسلامى الذى يملكه «خالد الجندى» فإن ملامح التنافس تمتد للمجال الفضائى، ففى الوقت الذى وقعت فيه شبكة الـ A. R. T السعودية والمملوكة لرجل الأعمال السعودى «صالح كامل» عقد احتكار مع عمرو خالد ليعمل مستشاراً للشيخ «صالح كامل» فيما يخص البرامج الدينية. وقبل هذا التوقيع بقليل وفى غضون عام ٢٠٠٠ أيضًا كانت شبكة الأوربت السعودية والمملوكة لجناح آخر من الأسرة المالكة السعودية توقع عقد احتكار مشابه للشيخ «خالد الجندى» ليصبح من خلاله المستشار الدينى للقناة ويظهر على الهواء مع مذيعى برنامج القاهرة اليوم ليجيب على تساؤلات المشاهدين ضمن حزمة أخرى من المذيعين وممثلى السينما تتنوع اهتماماتهم من السياسة إلى فنون الأزياء ومن السينما إلى فنون الطبخ الحديث.

وفيما بعد وكما سنرى بعد قليل ستفتح قناة دريم الفضائية المصرية والمملوكة هذه المرة لرجل أعمال مصرى هو «د. أحمد بهجت» أبوابها لداعية ثالث من الدعاة الجدد هو «الحبيب على» الذى بدا ذا ميول صوفية واضحة وبدا خطابه قادرًا على اجتذاب

الشـرائح الأعلى عـمريًا واجـتمـاعـيًا، وبعـيدًا عـن الدور السيـاسـى والثـقـافى الذى ـ لاشـك أن القنوات الفـضـائيـة بمخـتلف تـوجـهـاتـهـا تلعبه ـ فإن هناك عاملاً آخـر أدى إلى إقبال القنوات الفضائية على استضـافة نجـوم الدعـوة الجدد هو رغبتهـا فى اجتذاب المشاهدين خـاصـة مع تزايد الميول المحـافظة لدى الشـرائح العليـا من الطبـقـة الوسطى والتى تشكل الجمهور الرئيسى لهذه الفضائيات.

وإذا عدنا لداعية مثل ـ خالد الجندى ـ سنجد أنه يمثل نموذجًا مثـاليًا لفكرة اختـلاط الدين بالسيـاسـة بالفن بالثـروة فى النخـبـة المصرية؛ فهو يحتفظ بعلاقات صداقـة مع عدد كبيـر من الفنانين غـيــر المعــتــزلين وقـد أطلعنى باعــتــزاز على عـدد من الصــور الفوتوغرافية التى تربطه بعدد من الفنانات فى حفلات اجتماعية، كما أنه يرتبط بعلاقة وثيقة ببعض المعتزلات. وعندما سألته عن التناقض بين كــونه رجل دين وبين اعــتــيـــاده التــردد على ملهى «البـالماسـكيـة» الليلى الذى يملكه المطرب الشـعـبى «خـالد عـجـاج» فـاجـأنى بإجـابة انتزعت ضـحكات صـافيـة من أعـمـاقى؛ حيث قـال لى: إن الداعـيـة يجب أن يتواجد فى أماكن الفسـاد الأخـلاقى حتى يتـمكن من هـداية من فـيـهـا! وبعـد أن هدأت حـدة ضـحكاتى شـرح قـائلاً.. إنه يتواجد فى الملهى مع مجـموعة العمل فى قناة الأوريت ليوم واحد من أيام الأسبوع وأنه بطبيعة الحال لا يتعاطى الخمور وأنه كان يكتفى بتناول الطعام الجيد الذى يشتهر به المكان. الدلالة فى المعلومة تتجاوز حد التجريح الشخصى لمعنى أوضح.. وهو أن رجال الدين لم يعودوا فئة منعزلة ذات زى مميز يمنعها من ارتياد

الأماكن العامة أو يدفع أفرادها للتعالى على أوجه الحياة التى يمارسها البشر العاديون إنه الدين فى خدمة الحياة وهو شعار سنسمعه يتردد كثيرًا فى جنبات عالم الإسلام المجتمعى أو إسلام مابعد التنظيمات .

«خالد الجندى» بإقباله النهم على الحياة وملابسه الأوروبية الفاخرة وزيجاته المتعددة والشائعات التى طاردته كان محلاً لهجوم الكثيرين وبالذات المتحمسين لـ «عمرو خالد» و«الحبيب على»، فقد كانوا يعدونه غير مخلص للأفكار التى يرددها، ورغم أنه فى صيف ٢٠٠١ كان قد منع من الخطابة فى مسجد أبى بكر الصديق فى حى مصر الجديدة الراقى والذى يعتبر مع عدة مساجد أخرى أشهرها الحصرى، والمغفرة، ومسجد آل سلام أحد مراكز صناعة الدعوة الجديدة فى مصر، رغم هذا فقد كان الجندى حريصًا على إعلان تأييده للنظام التقليدى فى مصر على كافة مستوياته كما بدا حريصاً على إعلان تأييده للمؤسسة الدينية التقليدية فضلاً عن أنه أعلن أنه لا رغبة لديه فى أن تتجمع حوله أعداد غفيرة من الجماهير..

وهو يرى أن هناك فارقين بينه وبين منافسه «عمرو خالد» أولهما: فى التكوين العلمى لكل منهما. وهو يرى أن تكوينه العلمى يسمح له بممارسة الإفتاء، فى حين أن تكوين «عمرو» وثقافته الدينية لا يسمحان له بذلك، أما الفارق الثانى من وجهة نظره فهو فى طبيعة الجمهور حيث يرى أن جمهور «عمرو خالد» من

المراهقين فى حين أن جمهوره من الراشدين الذين يسعون إلى فهم صحيح لدينهم. ورغم أن الجندى لا يتمتع بقبول كبير بين الجمهور العريض لظاهرة الدعوة الجديدة. ومعظمهم من المتعاطفين مع الظاهرة الإسلامية بشكل عام. وربما يرجع ذلك لكونه الداعية الوحيد الذى لم يمارس الدعوة على خلفية تاريخ سابق من الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين أو غيرها من جماعات الإسلام السياسى، إلا أنه بحكم تعليمه الدينى بدا أكثر المدافعين عن ظاهرة الدعاة الجدد أو دعاة الأثرياء وقد قال لى فى حوارى المسجل معه: إن التأثير فى أبناء النخبة هو أقصر طريق لتغيير المجتمع.

ورغم قناعتى الشخصية أن «خالد الجندى» على وجه التحديد لا يهدف من ممارسة الدعوة لتغيير النخبة بقدر ما يهدف إلى الانتماء إلى عوالمها المخملية إلا أن ما قاله يبدو جديرًا بالتحليل، وهو لا يرى أية غضاضة فى أن يحصل الدعاة الجدد على أموال من الأثرياء كتلك التى يمنحونها للاعبى الكرة والفنانين. وقد سألنى مستنكرًا : هل لابد أن يرتدى الداعية ثيابًا رثة حتى يقتنع الناس بما يقوله؟. وأعترف أن ما قاله بدا مزعجًا لكاتب مثلى يرى أن الدعوة رسالة وليست وسيلة لمراكمة الثروات، وهو ما دفعنى لأن أستشهد برجل دين مثل «ابن حنبل» كان يرفض عطايا السلطة والأثرياء إلى الدرجة التى دفعته أن يعمل حمالاً وخادمًا للمسافرين فى قافلة حملته من العراق لليمن رغم أن هدفه من الرحلة كان مقابلة رواة الحديث فى اليمن وهو هدف علمى بحت لم يسغ له

قبول العطايا من الأثرياء. لكن «الجندى» فاجأنى بقائمة طويلة من العلماء الذين كانوا من كبار الأثرياء، والحقيقة أن كلا النوعين من العلماء كان موجودًا على مدار التاريخ الإسلامى وعلى كل أن يختار. «خالد الجندى» ينحاز بصراحة مطلقة للأغنياء وهو مثل «عمرو خالد» يرى أن هؤلاء أكثر قدرة على طاعة الله، وقد ضرب الأمثلة بعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهم من أثرياء الصحابة الذين استخدموا ثرواتهم لخدمة المسلمين... ولعل ما يميز خطاب «خالد الجندى» فى هذا المجال هو أنه خطاب لا مواربة فيه فهو يعلن انحيازه للثروة ولا يرى أن الفقراء مميزون فى شىء.

عملية استيراد وَلِىّ!

الحبيب على.. صوفى خمس نجوم

من بين الدعاة الجدد فى مصر يبقى «الحبيب على» حالة استثنائية تؤكد القاعدة، كما أن الاستثناء الذى يمثله لا يمتد ليشمل كل جوانب ملامحه كداعية؛ لكنه ينطبق على بعض الجوانب، فى حين تتشابه بعض الجوانب الأخرى فى حياته وتكوينه مع موديل الداعية الجديد بشكل عام..

وربما كانت الطبيعة الغامضة والطريقة البوليسية التى اتسم بها ظهور «الحبيب على» فى مصر ثم خروجه منها.. هى أحد ملامح الاختلاف.. وربما أيضًا كانت النشأة الصوفية والطرح المختلف بشكل ما عن خطابات زملائه المستمدة من الثقافة السلفية والمعادية بطبيعتها للصوفية.. ربما كانت هذه أيضًا هى أحد أبرز

ملامح اختلافه عن زملائه من الدعاة الجدد الخارجين دائمًا من خلفيه الانتماء لإحدى جماعات الإسلام السياسى أو من قلب حركة الدعوة الجديدة نفسها كما سنرى فى أجيال أحدث.

وهكذا سنجد أن الخطاب الصوفى مع النسب النبوى المقدس، مع الوضع السياسى والمالى للعائلة التى ينتمى إليها، مع ملامح الوجه المريحة، مع الجلباب الحريرى بسيط التكوين، مع اللهجة اليمنية ذات الحروف المفعمة بالإحساس والضغط على مخارج الحروف ـ كل هذه الملامح وغيرها جعلت من «الحبيب على» داعية يقف فى منطقة وسطى بين (الوظيفى). و(المقدس).. فهو من ناحية يمارس دوره الوظيفى كداعية فى أوساط النخبة، حيث يمكن للداعية أن يلعب أدوارًا مثل المرشد الروحى، والمثقف الدينى، ومن جهة أخرى يقدم نفسه كواحد من أحفاد الرسول (ﷺ) حيث يتبارى جمهوره فى تقبيل يديه ولمس ثيابه، وحيث يستهل هو أحاديثه دائمًا بالحديث عن حب المصريين «لنا آل البيت»!.. هكذا يمكن أن نفهم سر الهالة التى أحاطت بالداعية اليمنى ثم اختفت سريعًا مع اختفائه هو شخصيًا.

تبدو فصول سيرة «الحبيب على» فى مصر مثيرة وقصيرة فى الوقت نفسه، لكنها تكشف ببساطة عن قصة حياة غير عادية، ففى شتاء عام ٢٠٠١، وبينما كانت ظاهرة الدعاة الجدد تتنامى مثل كرة الثلج..وبينما كان كاتب هذه السطور يتأمل بعض الجوانب ويتابعها عبر تحقيقات وتقارير صحفية تنشرها مجلة روز اليوسف القومية، وكأنها تعبير عن حالات فردية لدعاة يشكلون ظواهر جديدة لم

يفهمها أحد بعد - كانت الظاهرة مازالت فى طور التكوين، وكان هناك استعداد كبير لدى الجمهور لاستقبال واستيعاب المزيد من المرشدين الروحيين والدينيين بشرط أن يكونوا مختلفين عما هو سائد..فى هذه الظروف هبط «الحبيب على» إلى مصر فى زيارة لم تكن الأولى من نوعها، لكن العام الذى شهد هذه الزيارة بالتحديد ٢٠٠١م كان عام تمدد ظاهرة الدعوة الجديدة لأقصى مدى، وهكذا كان علىَّ أن أستقبل مكالمة تليفونية من أحد أشهر أبرز الدعاة الجدد.. وهو نفسه أحد الحالات التى شملتها هذه الدراسة. بدأ الحديث عن الخلاف فى الرأى الذى لا يفسد للود قضية، وعن احترام الداعية للمجلة، وما أكتبه فيها بشكل خاص.. إلخ. كان التساؤل عن الهدف من المكالمة يلح على ذهنى عندما بدأ الداعية يُردد عبارات من عينة «كيف تسكتون؟ أخطاء دينيه فاضحة.. تخاريف.. شخص يمنى اسمه الحبيب على.. بيوت الفنانين.. وأكبر رجال الأعمال.. » هكذا انتهت المحادثة.. ولم يكن من الصعب أن أخمن الدافع من ورائها.. الداعية الجديد القديم، يسعى للتخلص من منافسه الجديد. يحرض ضده، ويتهمه بالجهل.. واقعة شخصية، لكنها ذات دلالة.

قبل أن تنتهى المكالمة لم ينس الداعية المنزعج من منافسه الجديد أن يعطينى رقم تليفون رجل الاتصال بالداعية اليمنى. كان الرجل رجل أعمال ناجح.. يسير وراء «الحبيب على»، ويقوم بعدة أدوار فى آن واحد فهو مُريد صوفى ومدير أعمال.. ومنتج برامج للداعية، ومفتاحه للدخول إلى أوساط رجال الأعمال والفنانين، كان

رجل الأعمال تابعًا وعرابًا فى الوقت نفسه للداعية، وهى صيغة سنجد أنها تتكرر كثيرًا سابقًا ولاحقًا.

قبل عام ٢٠٠١ الذى انتشر فيه «الحبيب على» فى بيوت الصفوة والمسئولين والفنانين، وقبل أن يدخل إلى دائرة النجومية وإلقاء الدروس فى المساجد الكبيرة وتسجيل البرامج التليفزيونية للقنوات الفضائية ذات الانتشار الكبير، قبلها بسبعة أعوام كان «الحبيب على» يتردد على مصر. وعلى طريقة الروايات التى تتردد حول كبار التابعين وأقطاب الصوفية وكيف أن القدر يرتب خطواتهم ولقاءاتهم بمريديهم روى لى مذيع تليفزيونى شهير قصة مجىء «الحبيب على» إلى مصر. والقصة تقول إن سبعة من المصريين من بينهم مذيع البرنامج الجماهيرى.. ونجل زعيم مصرى راحل، وآخرون من رجال الأعمال.. التقوا بالحبيب على فى موسم الحج. كان الشاب الصوفى يلقى درسًا فى خيمة الطريقة العلوية التى ينتمى لها، أعجبتهم الطريقة التى يلقى بها دروسه فتعرفوا به ووجهوا له الدعوة للمجىء إلى مصر.

ولم يكن الأمر غريبًا؛ فالطريقة التى ينتمى لها تحتفظ بفهم خاص للجهاد، وترى أن أساسه هو السفر للخارج لنشر الدعوة للإسلام بشكل عام، وللطريقة بشكل خاص. وفيما بعد وحين أصبح «الحبيب على» نجمًا فى مجال الدعوة كان عليه أن يروى لوسائل الإعلام المزيد عن حياته وعن شيوخ الطريقة التى ينتمى إليها، وهكذا تحدث مثلاً عن شيخه اليمنى «طه الحداد» الذى أسلم على يده ٣٠٠ ألف وثنى فى أدغال أفريقيا.

لكن الحبيب على الذى يعبر عن جيل أحدث اختار أن يمارس الدعوة بين صفوف المسلمين المغتربين فى أوروبا.. وبين أبناء الأسر الحاكمة فى الخليج العربى. وقبل مجيئه إلى مصر كان قد أحرز شعبية كبيرة فى أوساط الأوروبيين من أصول مغربية فى فرنسا وهولندا وبلجيكا.. كما أنه كان يحظى بعلاقات مؤثرة فى أوساط الأجيال الأحدث فى منطقة الخليج وبالذات فى إمارة دُبى التى أصبحت بمثابة نقطة ارتكاز له فى السنوات التى تلت خروجه من مصر.

وبمزيج من الاعتزاز والزهو كان مريدو «الحبيب على» يتبادلون شرائط مصورة لدروس كان يلقيها فى بعض قصور الخليج، بينما يتنافسون فى تحديد أسماء أولئك الذين يتنافسون لخدمة «الحبيب على» أو تقبيل يده بعد انتهاء الدرس.. وكانت الأسماء كبيرة.. وذات دلالة.

السياسة والصوفية

ربما كان «الحبيب على» واحدًا من أكثر الدعاة الجدد اتصالاً بالسياسة بمعناها المباشر.. ليس فقط على مستوى جمهوره ومريديه.. حيث كان من اللافت للنظر أنه استطاع خلال وجوده فى مصر استقطاب عدد من الوجوه ذات الاتصال اليومى والمباشر بالعمل السياسى، ولكن أيضًا على مستوى صلاته الأسرية والعائلية، فهو ينتمى إلى عائلة الجفرى إحدى العائلات الكبيرة والتقليدية فى جنوب اليمن. وبسهولة وسلاسة يحفظ الجفرى شجرة نسبه، وبعد ذكر ما يقرب من أربعين سلفًا يحمل معظمهم أسماء زين العابدين والحسين يقودك «الحبيب علىّ» إلى أصل الشجرة العائلية وجذرها زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه. الاسم ذاته يحمله الداعية نفسه أما (الحبيب) فهى درجة دينية أو لقب يناله أبناء الطريقة العلوية التى

ينتمى إليها والذين يصلون إلى درجة مرموقة فى السلم الصوفى، وعلى المستوى المباشر أيضًا ستجد أن والد «الحبيب على» هو أحد الزعماء التقليديين للحزب الاشتراكى اليمنى الذى حكم اليمن الجنوبى طوال سنوات ما قبل الاندماج بين شطرى اليمن. ومع الخلافات السياسية تحول «عبد الرحمن الجفرى» الذى شغل منصب رئيس الوزراء فى بلاده إلى لاجئ سياسى ناشط أسس جبهة تضم معارضى النظام اليمنى فى الخارج.. كانت تسميتها المختصرة هى (موج)، وبسبب تقلبات السياسة وأطوارها الغريبة فإن اليمنيين الاشتراكيين باتوا مرحبًا بهم فى الأراضى السعودية المقدسة..

وفيما بعد وحين شب «الحبيب على» عن الطوق لم يعد مسموحًا لهُ بأن يمارس نشاطه الصوفى فى المدينة المنورة التى كثيراً ما تحدث باعتزاز عن تلقيه العلم فيها على يد عدد من العلماء الذين يبدو أنهم كانوا يمارسون نشاطهم العلمى على هامش المؤسسة الوهابية، وما بين المدينة المنورة، ومدينة تريم اليمنية كان «الحبيب على» يروى لمريديه وجمهوره عن سنوات طفولته. أما «تريم» فهى مدينة الجامعة الدينية، وهى ظاهرة تكررت كثيرًا فى مدن مثل بيشاور فى باكستان وقم فى إيران.. والقاهرة نفسها فى بعض الفترات التاريخية. لكن صناعة الأسطورة كانت تقتضى الحديث عن مسقط رأس الداعية الجديد على أنها المدينة المقدسة.. أو مدينة العلم والعلماء،.. كما أنها المدينة التى دعا لها أبو بكر

الصديق أول الخلفاء الراشدين قائلاً : «أنتم بيت العلماء تنبتونهم كما تنبت الأرض الزرع».

ومثل غيره من الدعاة الجدد الذين ملئوا قلوب جمهورهم شغفًا فإن «الحبيب على» لم يتلق تعليمه الدينى داخل المؤسسة الدينية الرسمية، وفضلاً عن هذا فهو لم يكمل تعليمه المدنى من الأساس. وبعد حصوله على شهادة الثانوية العامة من السعودية عاد «الحبيب على» إلى مسقط رأسه ليكمل تعليمه الدينى على يد مشايخ الطريقة الصوفية الذين يتجمعون فى مدرسة دينية هى دار المصطفى للدراسات.. وفى مقابلة صحفية أجراها معه كاتب هذه السطور قال الحبيب على: إنه تلقى العلم فى حلقات الدروس التقليدية وأنه يحمل إجازة فى رواية الحديث.. والإجازة هى بمثابة شهادة يحملها الطالب من شيخه الذى يشهد له بأنه بذل من المجهود ما يؤهله لأن يصبح راوية للحديث النبوى شارحًا له. وبنفس السهولة التى يستطيع بها «الحبيب على» أن يروى شجرة نسبه العائلى حتى يصل إلى الدوحة النبوية المباركة.. فإنه يستطيع أيضًا أن يذكر قائمة العلماء الذين توارثوا الإجازة العلمية حتى وصلت له.. وهى قائمة طويلة لن يفيد ذكرها القارئ فى شىء. سوى التأكد من أنه أمام داعية من طراز مُختلف.. والأمر كذلك بالفعل.

وبسبب ثراء عائلته ذات الأصول الإقطاعية والنفوذ السياسى لها فإن «الحبيب على» لم يكن مضطرًا لامتهان مهنة بعينها. وهو

فضل أن يعرفه الناس كعالم دين وقطب صوفى يلتف حوله المريدون فى شتى مدن العالم التى كان يصلها بسهولة على متن طائرات خاصة غالبًا ما كان كبار مريديه يتكفلون بوضعها تحت تصرفه، ولعل «الحبيب على» يختلف فى هذه النقطة عن غيره من الدعاة الجدد الذين عادة ما يتميزون بأنهم مهنيون ناجحون، وبأنهم رجال أعمال مميزون بنفس الدرجة التى يتميزون بها كرجال دين.

وفى الحوارات والندوات التى أجريت معه بعد أن تألق كنجم فى مجال الدعوة كان الحبيب على حريصًا على أن يجيب على السؤال من أين ينفق؟ ولم تكن الإجابة تحتوى على معلومات. ولكن على تأملات فى أحوال الكون وتهويمات مراوغة.

وحين طرح عليه السؤال فى ندوة نظمتها جريدة «الملتقى الدولى» التى صارت - ربما بفعل إغراءات السوق - جريدته الرسمية طوال فترة إقامته فى مصر حين سئل كيف يمول رحلاته الطويلة حول العالم أجاب قائلاً: «هناك قاعدة أعلم أن الناس قد ملت من الاستماع إليها، ولكنى أود أن يلتفتوا إليها وهى أن الفقير (كان يلقب نفسه بالفقير إلى الله) الفقير ينفق من الله وينفق إلى الله.. والله سبحانه وتعالى لا يُنزل علىَّ أكياسًا من الأموال.. ولكن الله ـ عز وجل ـ قد تكفلنى.. وأخبرنى قائلاً ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ ثم تكفل لى كفالة أخرى حين قال رسول الله (ﷺ) (إن الله قد تكفل لطالب العلم برزقه)، وفى نفس الحوار اعتبر «الحبيب على» أنه موفد من مؤسسة محمد بن

عبدالله (ﷺ) لنشر الدعوة.. وبما أن الله سبحانه وتعالى قد جعل خزائن الأرض تحت قدمى نبيه؛ فإن المؤسسة المفترضة والمعنوية لن تكون عاجزة عن الإنفاق على أحد أبنائها!

نُخبة..النخبة!

Crem de la Creme!

مثل غيره من الدعاة الجدد فإن الأغلبية الساحقة من جمهور «الحبيب على» كانوا من الأغنياء، لكن الأغنياء مصطلح واسع وفضفاض يضم تكوينات ثقافية واقتصادية واجتماعية متنوعة، ولعل أصدق وصف لجمهور «الحبيب على» هو ذلك الذى قاله لى المذيع التليفزيونى الشهير الذى جلب الحبيب على إلى مصر وظل أحد المقربين منه طوال فترة وجوده فى القاهرة.. كان المذيع يريد أن يفهمنى خطر ما أنا مقدم عليه؛ لذلك قال لى شارحًا ومحذرًا فى آن: إن جمهور «الحبيب على» فى مصر هو نخبة النخبة أو Creme de la Crem على حد التعبير الفرنسى الشائع.

وعلى مستوى آخر كان عدد من كبار رجال الأعمال من بين مريدى «الحبيب على»، وعلى مستوى السن كانوا أيضاً من الشرائح الأكبر عمرًا.. أولئك الذين أرهقهم سباق الحياة وصراعاتها المستمرة وبدوا فى حاجة لوقفة تأمل صوفية ولجرعة من الزهد الفاخر الذى لا يقود إلى خسارة حقيقية فى مجال الأعمال، ربما كان من ضمن الأسباب أيضًا أن غالبية جمهور الداعية عادة ما يكون من نفس طبقته.. وهو ما كان متوافرًا فى حالة «الحبيب» ذى الأصل الأرستقراطى المدعم بالنسب الشريف. ربما كان من ضمن الأسباب أيضاً تداخل دوائر الاقتصاد فى عدد من البلاد العربية بمعنى أن الشركاء الأكثر تأثيرًا من الخليج مثلاً يمكن أن يصدروا فكرة الإعجاب بالداعية لشركائهم المحليين فى مصر.. لكن هذا يبقى مجرد تفسير يستند لكون بعض أشد المقربين من «الحبيب على» فى مصر كانوا على علاقة شراكة تجارية بشركاء كبار من دول الخليج. يبدو من تحصيل الحاصل ذكر أسماء رجال الأعمال والفنانين والمسئولين الذين اجتذبتهم الجلسات الصوفية التى كانت تعقد فى حضرة «الحبيب على»، وربما تكون قدرته فى اجتذاب العدد الأكبر من رموز المجتمع نابعة من كونه صوفيًا.. وهو لم يكن محسوبًا على أىٍّ من جماعات الإسلام السياسى التى تناوئ السلطات فى الوطن العربى وتنازعها الشرعية، لم يكن محسوبًا على أحد سوى على طريقته الصوفية أو هكذا كان يبدو، وعلى مستوى آخر فإن جزءًا من هذا الالتفاف قد يعود إلى أن الالتفاف حول مشايخ ورموز الصوفية كان جزءًا من تراث بعض السياسيين

المصريين فى عهود وفترات متعاقبة، أما السبب الثالث فهو أنه مثلما يحدث فى كثير من الأحيان فإن جماعات المصالح التى تبدأ صغيرة ثم تتشابك فيما بعد تبدأ فى التكون حول هذا النمط من الدعاة.

وهكذا مثلاً كان علينا أن نفهم التحول الذى حدث فى سياسة عدد من الجرائد الصغيرة التى توصف بالقبرصية والتى عادة ما تستخدم فى تصفية الخلافات بين رجال الأعمال.. حيث اكتست جميعها ثوبًا دينيًا صوفيًا وباتت معنية بتغطية نشاطات الداعية الشاب وإجراء الحوارات المتعددة معه، بل إن أحد مسئولى التحرير فى هذه الجرائد تحول إلى مقدم برنامج يحاور فيه ضيفًا واحدًا هو الحبيب على وأذاعت البرنامج قناة فضائية مصرية خاصة، وعلى مستوى آخر سنجد أن «الحبيب على» مثل غيره من الدعاة الجدد كان على علاقة عضوية بمجموعة الفنانين المعتزلين.. لكن فى حالة «الحبيب على» فإن الأكثر ارتباطًا به كانوا مجموعة من المعتزلين الرجال، فى حين لم تتقبله كثيرًا مجموعات الفنانات المعتزلات ذوات الثقافة والتكوين السلفى بسبب الحساسية المعروفة بين السلفى والصوفى، وهكذا كان علىّ أن أُضيع دقيقة لأتذكر ملامح الكهل ذى اللحية البيضاء وشال الصوفية الأخضر الشهير الذى كان يفسح الطريق «للحبيب على» بين زحام الجمهور فى أحد مساجد حى الزمالك الراقى كان الرجل هو الممثل التليفزيونى الشاب وقت اعتزاله (مجدى إمام) وكان هناك أيضًا وجدى العربى ومحمود الجندى وجمال إسماعيل وهم ممثلون اجتذبتهم النزعة

الصوفية. لكنهم يبقون مختلفين تمامًا عن لوبى المعتزلات ذوات العلاقة الواضحة بالتصورات السلفية للإسلام والفن.

كان من اللافت أيضًا أن تسمع أن سياسيًا علمانيًا ورجل أعمال مثل أيمن نور لم يعرف عنه أنه تحول عن ليبراليته بات من مُريدى «الحبيب على» وأنه يستضيفه مع مريديه من رجال الأعمال وسط ديكورات إسلامية. وفى الأسبوع نفسه كان «الحبيب على» يحل ضيفًا على منزل أكبر مسئول عن جهاز ادعائى وظيفته محاسبة رجال الأعمال إذا ما أخطئوا فى حق المجتمع. فضلاً عن عشرات من الفنانين يتصدرهم المضحكون الجدد وصانعو ظاهرة السينما الجديدة وفنانة مثل يسرا قِيل إنها أوشكت على اتخاذ قرار الاعتزال بعد لقائها به. وفنانة مثل حنان ترك قررت بعد مقابلته أن ترسل له سيناريوهات الأفلام المعروضة عليها حتى يبدى رأيه فيها.

جمهور الداعية الصوفى من الأغنياء إذن، وهو نفسه صوفى من طراز خاص، فهو فى البداية كان يخلب ألباب مريديه حين يعلمون أنه يغادر قصورهم الفاخرة لينام على الأرض فى ساحة صغيرة تتخذها طريقته الصوفية مقرًا لها بجوار جامع الحسين، لكنه أيضًا بدا متسقًا أكثر حين أصبح يبيت فى الفندق الكبير ذى النجوم الخمس الذى يتوسط ميدان التحرير، أما جلسات الذكر الصوفى نفسها فهى تبدو مفارقة وتجمع بشكل نادر بين التراث الصوفى وبين مظاهر الحداثة، فعلى مدار مئات السنين كانت ممارسات الذكر الصوفى معروفة.. حيث ينتظم الصوفية الذين

ينتمـون لطريقـة واحدة فى مسـجد الطريقـة أو فى سـاحـة القطب الصـوفى ليـتمـايلوا على إيقـاع واحـد.. مـرددين كلمـة واحـدة، ومع الإيقاع المكرر والتـركيز فى معنـى واحد تحدث حالة الوجد وينفصل الصوفى عن الواقع محلقًا فى عوالم أكثر اتساعًا. ومع الحـركة المتكررة والمجهود المبذول لمزيد من التركيـز يأتى الشعور بالجوع.. وهنا تأتى المرحلة الثانية من الطقس الصوفى؛ تناول الطعام كرمز للبركة التى يقدمها الشيخ لمريديه. أما الطعام فهو اللحم والثريد.. ربما كـان ذلك وراثة عن الأسـلاف الأوائل لكن الأمـور ظلت هكذا. أمـا مع «الحـبيـب على» فـالطقس الصـوفى أكـثـر حـداثة، وبسـبب الوضـعيـة الاجـتمـاعيـة للمـريدين فـإن جلسـات الذكـر انتـقلت من المسـاجد والسـاحـات المفـتوحـة إلى البـيـوت. كمـا أن أطبـاق اللحم والثريد لا تبدو مناسبة كثيرًا لجمهور من صفوة الصفوة؛ لذلك فإن الدعـوة التى يقـدمـهـا صـاحب البـيت كـانت دائمًـا مـا تُسبق باسم الفندق أو المطعم الفاخر الذى سيتولى إعداد البوفيه.. وفى الغالب كـانت تتم منافسـات بين المـريدين للوصـول بالعـشـاء إلى أفـخم مـا يمكن الـوصـول إليـه بما يوازى القـيـمـة المعنوية للمـضـيـف، وبغض النظر عن تنـافى ذلك مع الفكرة الصـوفيـة القـائمـة على الزهد فـإن هذا هو ما كـان يحدث.. كانت الجلسات تتم بشكل مختصر حفاظاً على الوقت كان كل مُريد يمسك بيد زميله.. والهدف هـو الإحساس بوجـود روح الـرسـول (ﷺ) بين الحـاضـرين. وهكذا تسـتمـر الحـركة القـائمـة على الإيقـاع حـتى يصيح أحد الحـاضـرين قـائلاً (حـضـر) والمقصـود هو حضـور الـروح المبـاركة.. ومع الإيحـاء الجمـاعى فإن

الجـمـيع يخـرجـون أكـثـر سـعـادة ورضـا وتعـارفـاً.. وهكذا تؤدى الجلسـات إلى مـزيد من الـراحـة النفـسيـة ومـزيد من العـلاقـات مع مجتمع الصفوة.

جمهور «الحبيب» من الأغنيـاء إذن.. لكنهم ليسوا أولئك الشبان الصغار الذين يلتفون حول داعية مثل عمرو خالد ليقدم لهم مزيجًا من الوعظ الـدينى واسـتشـارات إدارة الذات وتنمـيـة القـدرات التى تمتلئ بهـا رفوف المكتبات الأمـريكيـة. «الحبيب على» لا يتحـدث عن استثمـار الوقت والنجاح فى العمل واكتسـاب الأصدقـاء، هو فقط يمنح النفوس راحـة من الصراع اليومى استعدادًا لمواصلة المعركة. وعلى المسـتـوى السـيـاسـى سنجـد أنه من الصـعب القطع بنوايا واضحة، لكن عددًا من علماء الأزهـر اتهموه بعد رحيله بأنه شيعى ينتمى لقبيلة شيعيـة كبيـرة. لكن التهمة كانت دائمًا معلقة برقـاب الطرق الصـوفيـة التى اختـارت أن تحب آل البيت مع الحـفـاظ على ولائها السـيـاسـى للسلطة السنية، ولعل من اللافت أن عددًا من كبـار الدبلوماسـيين اليمنيين فى مصر قد احتضنوا «الحبيب» على بشدة مع سطوع نجـمـه رغم كون والـده من كبـار المعـارضين للنظام الحـاكم فى اليـمـن، وقـد قـيل إن السـبب هو حـدوث مـصـالحـة بين النظام ومعـارضيـه ومن بينهم عبد الرحمن الجفرى والد «الحبيب على»، أمـا مـجلة اليـمن التى تصـدرها السـفـارة اليـمنيـة فى القـاهـرة فقد اهتمت كثيـراً بأخباره، ويبدو منطقيًا أن تهتم سفارة اليمن، بمواطن استطـاع أن يحقق من النفـوذ الروحى والنـجـوميـة فى مصـر مـا لم يحققه أى يمنى آخر.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى طبيعة الجمهور فقد سئل «الحبيب على» السؤال نفسه الذى وجه من قبل للدعاة الذين سبقوه فى الظهور.. لم تختلف إجابته كثيرًا.. وحين سألته صحيفة «الملتقى الدولى» التى أخذت على عاتقها مهمة الترويج له عن هذه النقطة أجاب قائلاً : «إننى أركز على الأغنياء والفنانين والمسئولين.. لأن الله يجعل على أيديهم قوة فى التغيير لا توجد فى غيرهم..» إنها إجابة صريحة ومباشرة لكنَّ للمسألة منطقًا آخر.. إذ يضيف: «لقد أنفق الأغنياء من قبل على ولائم الأفراح وأعياد الميلاد أو الزواج.. ولم ينتقد أحد ذلك.. فلماذا إذن يصبح الإنفاق فى الاحتفاء بالحبيب على أو بالذكر ومجالس العلم عيبًا»..

هذه الإجابة نفسها كررها الدعاة الذين وجه لهم السؤال نفسه كانوا يردون بسؤال مضاد: «ولماذا حين ينفق الأثرياء على الفنانين ولاعبى الكرة لا يؤاخذهم أحد.. أليس رجال الدين أولى؟». هذا إذن منطق إزاحة وإحلال يتخيل فيه الدعاة أنفسهم فى منافسة مع الفنانين ولاعبى الكرة ويتخيلون الدروس الدينية طقسًا منافسًا للأفراح والحفلات الخاصة. ومن ثم لا يصبح العيب فى نمط الإنفاق السفيه للأغنياء ولكن للجهة التى يوجهون لها هذا الإنفاق.

لكن «الحبيب على» يملك تبريرًا إضافيًا للتبريرات التى يكررها الدعاة الجدد حول قبول عطايا الأثرياء أو حضور الدروس الدينية عالية التكلفة حيث: «يقول إن المجالس التى نُدعى إليها يأكل فيها الفقراء الذين يأتون لطلب العلم.. وقد يأكلون من الأطعمة ما لم يأكلوا فى شهور مرت عليهم» !.

رحيل مفاجئ.. وترحيل ودّى

بسبب طبيعة جمهورهم المكون من الصفوة وأبناء النخبة.. فإن علاقة الدعاة الجدد بالدولة وأجهزتها الأمنية كانت تشبه فى بعض مراحلها لعبة البنج بونج.. ويبدو لمن يراقب المشهد من بعيد أنه لا يوجد موقف واضح من الظاهرة والمواقف تتخذ حسب المستجدات، من جانبهم كان الدعاة يلتزمون التزامًا شبه حديدى بقاعدة البعد عن السياسة والأمور العامة.. فقط يركزون على فكرة الإيمان والخلاص الفردى وعلاقة الفرد بنفسه وبالآخرين. ولعبة البنج بونج كان سببها النفوذ الاقتصادى ـ الاجتماعى وربما السياسى الذى يتمتع به مريدو الدعاة الجدد. أو بعضهم، وهكذا يمنع الداعية لأى سبب من الخطابة فتبدأ حملة ضغط واتصالات ووساطات قوية حتى يعود مرة أخرى.. ضغوط من داخل بنية الدولة والمجتمع.. وهكذا حدث مع داعية مثل «عمرو خالد»، أيضاً

مع «الحبيب على».. فقبل ترحيله النهائى من مصر تم منعه أكثر من مرة من الدخول، كان ذلك خلال عام ٢٠٠١ . يصل إلى مطار القاهرة فيجد نفسه ممنوعًا من الدخول،تحدث اتصالات، يتوافد المريدون بأزيائهم الفاخرة وسياراتهم غالية الثمن، يتجمعون أمام صالة المطار فيما يشبه تظاهرة احتجاج.. فاخرة.. وصامتة.. بعد ساعات من الاتصالات والضغوط.. يسمح للداعية بالدخول.. تكرر ذلك مرتين أو أكثر خلال عام واحد.

فى المرة الثالثة تغير السيناريو قليلاً، كان «الحبيب على» فى مصر بالفعل.. وفيما بدا فى تكوينه مشهدًا سينمائيًا مؤثرًا كان الحبيب يصلى الفجر بعدد كبير من مريديه فى ساحة ميدان الحسين.. تم استدعاؤه بعد الصلاة وطُلب منه بكل تهذيب أن يصحب المختصين.. لتحقيق قصير فى مقر أحد الأجهزة الأمنية، بعد التحقيق.. خرج «الحبيب على» إلى مطار القاهرة.. ليجد المئات من مريديه فى وداعه.. تم الأمر ببساطة ويسر، لم يعرف أحد ما الذى دار بينه وبين المسئولين فى الجهاز الأمنى.. هل كان متهمًا باتهامات معينة؟ هل للأمر علاقة بأسرته.. بالمعارضة اليمنية.. بالنظام اليمنى.. بالشيعة.. أو بالسنة.. هل كان إجراءً عامًا للحد من تغول الدعاة الجدد؟ هل كان مقصودًا بصفة خاصة؟ لا أحد يعلم.. وإن كانت الصحف فى الأيام التالية لرحيله قد نشرت عددًا من التحليلات والتكهنات، فبعض مريديه اتهموا أحد الدعاة الآخرين بالدس له والتحريض عليه لدى أجهزة الأمن. فى حين قال آخرون: إن العلماء والمؤسسات السلفية ناصبته العداء

بشدة نظرًا لكونه صوفى النزعة.. وقالت شائعات أخرى لا تخلو من حقيقة إنه كان فى طريقه لإقناع عدد من نجمات السينما بالاعتزال وارتداء الحجاب وهو ما لم يعجب المسئولين.. اختفى الداعية ولم يختف المزاج الذى أفرزه.

الفصل الثانى

الجيل الثالث

أنا بتاع الماكدونالد!

فى السنوات التالية لسطوع نجم «عمرو خالد».. و«خالد الجندى».. وغيرهم ممن يمكن اعتبارهم الجيل الثانى من الدعاة الجدد، تحولت الدعوة الجديدة إلى مؤسسة حقيقية. وبدا واضحًا أن الدعوة بهذه الطريقة ليست نشاطًا فرديًا يمارسه الفرد إذا حلا له ذلك. بدا واضحًا أن هناك سياقًا أوسع يضم الجميع حتى وإن لم يتعمدوا ذلك، فالملامح الشخصية للدعاة من حيث التعليم المدنى، ونوعية الخطاب الذى يركز على ما هو اجتماعى ومعيشى ومرتبط بالسلوكيات والاحتياجات شبه اليومية. وكذلك البعد عن خطاب الزجر والتخويف. بدت واحدة، حتى مع ظهور الجيل الثالث من الدعاة الجدد، كما أن بعض المساجد التى تضمها شوارع

الأحياء الراقية غدت بمثابة جامعات صغيرة أو مراكز لإنتاج ظاهرة الدعوة الجديدة، ولعل تعاقب أجيال الدعاة الجدد على الخطابة فى هذه المساجد هو الذى يوحى بفكرة تشبيهها بالجامعات، ففى مسجد نادى الصيد فى حى الدقى الراقى توالت أسماء: عمر عبد الكافى وعمرو خالد، وخالد الجندى، ود. عبد الباسط محمد (أستاذ فيزياء تخصص عقب سفره السعودية فى الطب النبوى). وفى مسجد دعوة الحق.. القريب من نادى الصيد توالت أسماء عمرو خالد ثم صفوت حجازى. وأما مسجد أبو بكر الصديق الذى يقع فى ضاحية هليوبوليس الراقية والبعيدة بالذات فقد توالت عليه أسماء مثل خالد الجندى، وحازم أبو إسماعيل وخالد عبد الله والأخير مهندس مدنى ذو أسلوب كوميدى ساخر وهو يعد خير ممثل للجيل الثالث من الدعاة الجدد؛ حيث بدأ الخطابة فى مسجد أبى بكر الصديق بعد منع خالد الجندى من الخطابة هناك فى صيف ١٩٩٨، وبالإضافة لهذه المساجد فإنه لا يمكن إغفال المسجد الأشهر فى صناعة الدعاة الجدد وهو المسجد الذى تديره جمعية ترأسها الفنانة الأنشط بين المعتزلات ياسمين الخيام، أو إفراج الحصرى كما أصبحت تفضل أن تنادى بعد الاعتزال، وإذا عدنا لمسجد أبى بكر الصديق فسنجد أنه استضاف إلى جانب الدعاة الرجال عددًا من ألمع الداعيات النساء وأكثرهن تأثيرًا بين نساء الشرائح العليا من الطبقة الوسطى المصرية وهناك ألقت نساء مثل شيرين السحار وشيرين حافظ ود. ماجدة عامر على نظيراتهن من النساء المصريات دروسًا فى موضوعات متعددة

بدءًا من كيفية تربية الأطفال وتزويج الفتيات على النهج الإسلامى وليس انتهاءًا بالإعجاز العلمى للوضوء وكيف أنه يقوى الجهاز المناعى للجسم.

الداعيات النساء ظاهرة مهمة للغاية لكنها تبقى جملة اعتراضية حتى ننتهى من استعراض الجيل الثالث من الدعاة الرجال.. والحقيقة أنى كنت أعتقد أن ظاهرة خروج الدعاة الجدد من مساجد معروفة بالاسم فى جنبات الأحياء الراقية هو محض مصادفة. أو ربما بسبب حماس القائمين على إدارة هذه المساجد وجمهورها لذلك النوع من الدعاة.. لكن الأمر لم يكن كذلك ففى شهادته المسجلة حول واقع الدعوة الجديدة فى مصر نبهنى الشيخ «خالد عبدالله» إلى أن تركيز الدعاة فى مساجد بعينها يكون بناء على طلب من الجهات الإدارية والأمنية التى يبدو من الأفضل لها أن تبقى الدعوة الجديدة تحت السيطرة!

ولعل ظهور الجيل الثالث من الدعاة عبر الخطابة فى ذات المساجد، وإصدار شرائط الكاسيت من الشركات نفسها، والظهور فى نفس القنوات الفضائية لعل فى هذا إشارة أو دليلاً كافيًا على أننا أمام ظاهرة تتسع وتنمو باطراد وسرعة مدهشين، ومن الجيل الثالث من الدعاة استوقفتنى أسماء مثل «خالد عبدالله» ود. «ياسر نصر» وأجد نفسى هنا مطالبًا بفتح قوس صغير لأقول إن الجيل هنا يفقد دلالته المتعارف عليها (جيل كل عشر سنوات) فبسبب سرعة نمو الظاهرة فإن الفارق بين الأجيال لا يتعدى سنتين، مع

الأخذ فى الاعتبار أن بعض من يعرفون طريقهم للشهرة لاحقاً قد يكونون أكبر سنًا من أولئك الذين سبقوهم للشهرة والتأثير ومن ثم تم اعتبارهم بمثابة جيل سابق.

من بين الموجة الثالثة من الدعاة فإن الشيخ «خالد عبدالله» يبدو الاسم الألمع والأكثر شهرة، وقد قدم لى شهادة شجاعة عن الدعوة الجديدة فى مصر(*)، ومثل غيره من الدعاة الجدد فإن «خالد عبدالله» الذى بدأت شعبيته فى التزايد بعد سفر «عمرو خالد» إلى لندن.. لم يتلق تعليمًا دينيًا! فالداعية ذو الأسلوب الساخر والروح الكوميدية من خريجى كلية الهندسة جامعة القاهرة. وهو يبدو فى النصف الثانى من الثلاثينيات وبخلاف الكثيرين من أقرانه الدعاة لم يدخل حقل الدعوة الجديدة على أرضية الانتماء للإخوان المسلمين، فقد اكتشف فى مراهقته أن صوته جميل وأنه يجيد قراءة القرآن وعلى ما يبدو فقد بدأ رحلته للالتزام الدينى على يد جماعات السلفيين الذين ينتشرون فى مساجد الأحياء الشعبية. لكنه سرعان ما طور موهبته كقارئ للقرآن وتعلم أحكام التلاوة على يد شيوخ المساجد ليعمل وهو ما زال طالباً كقارئ قرآن.. لكنه قارئ مختلف أو كما يقول هو «كانوا يتهموننى بأننى أقلد الشيخ محمد جبريل.. مع أن الشيخ جبريل له مدرسة مستقلة» وهكذا كان «خالد عبدالله» قارئًا من مدرسة مختلفة عن تلك المدرسة التقليدية التى يعلى فيها القراء الكبار من

(*) حوار مسجل القاهرة يونيو ٢٠٠٤ .

شأن الصنعة على حساب الإحساس فمع سنوات التسعينيات أصبحت هناك مدرسة مختلفة للقراءة، تتكون من مزيج من الإحساس العالى الذى يصل دائمًا إلى درجة البكاء وإبكاء المصلين، بالإضافة إلى مزيد من التأثر بأسلوب مشاهير القراء غير المصريين ـ السعوديين خاصة ـ كانت هذه المدرسة. تقوم أيضًا على مزيد من التفاعل مع الآيات.. الفرح فى الآيات التى تتحدث عن الجنة، والبكاء فى الآيات التى تتحدث عن النار.. وهكذا كان القارئ الشاب تلميذًا فى هذه المدرسة ولعل الحوار مع «خالد عبدالله» يكتسب أهميته ليس فقط من تدفقه فى الحكى ولكن باعتباره شهادة على كيفية انتقال داعية شاب من هامش الدعوة الجديدة إلى القرب من مركزها خلال ثلاث سنوات وهو ما يعطى مؤشرًا مهمًا حول مدى احتياج الجماهير المحافظة بطبيعتها لمزيد من الدعاة الجدد، وكما روى فقد بدأت علاقته بالقصة من خلال مصاحبته لعدد من الدعاة الجدد أثناء إلقائهم دروسهم، هم يلقون الدرس وهو يصلى بالناس، هكذا حدث مع الداعية الأقدم «عمر عبد الكافى» فى مساجد الدقى، وهكذا حدث فى مسجد الحصرى مع دعاه آخرين من أشهرهم «عمرو خالد»، كنت أجلس لأسمعهم فى الدروس بينما أصلى بالناس.. المغرب والعشاء.. وكان هذا تقليدًا جديدًا وقتها. كانوا يريدون أن يكون الدرس مؤثرًا فى الناس. والصلاة كذلك، كان الهدف أن يخرج المسلم من الدرس بشحنة روحية طيبة.. كانت الفكرة أن يسمع الناس درسًا عن الصبر مثلاً، وفى الصلاة يسمعون الآيات التى تتحدث عن الصبر،

كـان ذلك فى نهـاية الثـمـانينيـات.. أو سنوات مـخـاض الدعـوة الجديدة.

يتشـابه الدعـاة الجـدد فى أشيـاء ويختلفـون فى أشيـاء أخـرى. يتشـابهـون فى طبيـعـة التـعليم المدنى، والانتـمـاءات الاجـتـمـاعـيـة للجـمـهـور، وطبـيـعـة الموضـوعـات التـى يطرحـونهـا.. ويخـتلفـون فى الهدف من ممارسة الدعـوة. الذين جاءوا من خلفية انتماء سياسى يهدفون إلى تغيير المجتمع من خلال تغيير سلوكيات الفرد، وهم فى الغالب من الإخوان السابقين الذين قـرروا فى مرحلتهم الجديدة أن يؤمنوا ببعض ما يقوله الإخوان، وأن يكفروا بالبعض. وكان ما آمنوا به من دعوة الإخوان، هو أن تغييـر المجتمـع يبدأ بتغيير سلوكيات الأفـراد، وكـان مـا كـفـروا بـه هو الواجب السـيـاسـى على الأخ المسلم (الانتـمـاء للجـمـاعـة والانغـمـاس فى اللعـبـة السـيـاسـيـة فى المواقع المختلفـة) كانت الملاحظة الأسـاسية أن من يطمحون لتغيير حقيقى هم غـالبًـا من أبناء الطبـقـة التى يتـوجـهـون لهـا بالـدعـوة. الطبـقـة الوسطى وشـرائحـهـا العليـا، بينمـا كـان البـعض يمارس الدعـوة من أجل ممارسـة الدعـوة، أو يمكن وصفـه بأنه واعظ بأجـر.. وكـان أشـهر هؤلاء هو الشيـخ «خـالد الجندى».. ولسبـب ما أصـبحت أميل إلى تصنيف «خالد عبدالله» ضمن هذا النوع من الدعاة.

هكذا كان يمكننى أن أسـأله.. هل أنت من أبناء التيار الإسـلامى المنظم؟! ليجـيب بثقـة: «إطلاقـاً والحـمد لله.. أنا لا أذم فى هؤلاء الناس.. ولكن ليس لى اتجاه من أى نوع.. لست سلفيًا.. أو إخوانيًا

أو صـوفـيًـا .. أو تبليغ ودعـوة.. وحـتى فى أيام الجـامعـة لم تكن الدراسـة وظروف المنزل تسمح لى أن أنضم لأية جماعة.. كان على أن أنجح وأجتهد.. رفضت الانضمام لأية جماعة.. وقررت أن آخذ من كل جماعة أفضل ما فيها.. قررت أن أكون توليفة لأجد نفسى مُسلمًا.. معتدلاً.. لطيفًا.. أعيش وفقاً لقاعدة الوسطية».. ..إجابة توفيقية..

ولكن كيف تصنع طبقة الصفوة دعاتها..؟ تأتى الإجابة. «فى عام ١٩٩٨ ظهرت قضية غياب كثير من الدعاة عن الساحة.. إما لظروف سياسية، أو أمنية، بعضهم سافر.. فى ذلك الوقت كان «عمر عبد الكافى» قد بدأ يختفى من الساحة. وتباعدت المرات التى يخطب فيها «حازم أبو إسماعيل».. وأصبح هناك نوع من القيود على الدعاة.. ظهر نوع من القلق.. والمشاكل مع الأمن، وقتها كنت أسكن منطقة سليمان جوهر بالدقى، المنطقة الشعبية فى الحى الراقى وكانوا يريدون أحدًا ليخطب الجمعة فى مسجد أسد بن الفرات بدلاً من «عمر عبد الكافى» هكذا بدأت بتحضير الخطب.. والخطابة!.. المهم أنى صعدت على المنبر ووجدت استحسانًا كبيرًا وبدأت الدنيا تكبر معى.. وأصبح لى مريدون.. لم أقل أنى عالم فأنا لا أمت للعلم بصلة ولكنى ناقل جيد. ومُعَبِّر جيد عن أفكارى».

الصالون الإسلامى

هروب من رائحة الأقدام!

من بين ظواهر.. ومظاهر الدعوة الجديدة فى مصر.. كان الصالون الإسلامى يبدو طقسًا مُحيرًا.. سهرات تمتد من المغرب إلى ما بعد العشاء حيث يجمع الداعى مجموعة من أصدقائه.. تضم الدعوة الرجال والنساء.. فى المنزل غالبًا ما يتم الفصل بين الجنسين، تجلس النساء فى الغرف الخلفية، أو فى جزء مفصول من قاعة الاستقبال.. غالباً ما يتم الاستعانة بسماعة داخلية يتم وضعها فى المكان الذى تقيم فيه النساء.. مع الدرس يكون هناك دائمًا بوفيه للعشاء إذا كانت الدعوة مساءً، وفى بعض الأحيان وفى الدروس الصباحية النسائية ربما يشمل البوفيه الشاى فقط مع بعض المخبوزات والحلوى، غالبًا ما تشمل الدعوة التى يقدمها

صاحب البيت لحضور الدرس تحديدًا لاسم المطعم.. أو الفندق الذى سيجلب منه المأكولات؛ ربما فى ذلك نوع من الإغراء بالحضور.

وصف الصالون الإسلامى بشكل عام ومجرد يوقعك فى نوع من الحيرة فهو يحتمل جميع التفسيرات. من أكثرها جدية إلى أكثرها خفة.. التفسير الجاد يقول: إن رواد الصالون أشخاص مؤمنون يجتمعون فى نطاق من الخصوصية والبعد عن العلنية ليتلقوا دروسًا فى دينهم ـ والتفسير الأكثر خفة يقول: إن هؤلاء أثرياء فاخرون يتظاهرون بالتدين ويقلدون موضة انتشرت فى بيوت الأثرياء والأغنياء الجدد انتشار النار فى الهشيم.

والحقيقة أنه لا يوجد تفسير واحد لظاهرة الصالون الإسلامى سوى أنها أحد تجليات التدين خارج نطاق المؤسسات الدينية التقليدية، إنه تدين خاص.. أو تدين قطاع خاص.. ولفترة طويلة كان الاعتقاد أن ما يقال فى دروس البيوت أو الصالونات الإسلامية يختلف عما يقال فى المساجد.. لكن الحقيقة أن مضمون ما يقال واحد، وبحسب شهادة «خالد عبدالله» فإن الدروس الدينية فى البيوت ظهرت بسبب التضييق الذى تم من الجهات الأمنية فى بعض الفترات على دروس المساجد! وفى زاوية جديدة لا يمكن إغفالها ومن وجهة نظر «عبدالله» الذى يمكن باطمئنان اعتباره شاهدًا من أهلها فإن هناك سببين وقفا وراء ظاهرة الصالونات الإسلامية أو دروس البيوت، السبب الأول هو أن هناك طبقة

جديدة أو صفوة جديدة أصبحت فى حالة شغف بسماع الدروس الدينية، هذه الطبقة يسميها هو (الهاى كلاس).. هؤلاء يريدون تلقى دروس العلم لكن ليس لديهم الوقت الكافى.. أو الرغبة فى الذهاب إلى المسجد وسط العاديين من الناس! ويواصل «كان هناك من يشكون من رائحة الأقدام فى المساجد.. كانوا يتضايقون.. وكانت هناك هذه القصص التى يقوم بها أبناء الذوات!» ويواصل: «ظاهرة دروس البيوت انتشرت عقب لمعان نجم «عمرو خالد» لأنه بعد أن بدأت مرحلة نجوميته بدأ يدعى لبيوت كثيرة جدًا، وكان الجميع يتسابقون لحضور الدروس التى يلقيها فى البيوت.. حتى غير المتدينين، كان الجميع يفعلون ذلك من منطلق التباهى والمظهرة». ويواصل فى حنق "كنت كلما قابلت شخصاً أو تعرفت عليه يقول لى: لى الشرف أنى كنت أول من استضاف «عمرو خالد» فى بيته.. ويكمل أهلاً وسهلاً ولكن ماذا فى هذا.. عمرو خالد من الممكن أن يذهب لأى بيت يُدعى له ويواصل: «كان يخطب فى مسجد دعوة الحق بينما أنا كنت أصلى بهم التهجد، وبينى وبينه علاقة طيبة.. ولكن انفصلنا عن بعضنا البعض نهائيًا بعد أن بدأ نجمه يبزغ كما يقولون».. يضيف :«أستطيع أن أقول لك إن السبب الأول لظهور الصالونات الإسلامية هو تفاخر صاحب الدعوة باستضافة الداعية.. على طريقة فى بيتنا نجم».

لكن التفاخر لا يكفى سببًا لاستمرار ظاهرة وانتشارها لهذا الحد.. ويعلق الداعية الشاب «بالطبع هناك آخرون كانوا يعتبرون هذا نوعًا من الدعوة إلى الله.. شخص يتدين ويريد أن يستميل

أسرته والمحيطين به للتدين ويوجه الدعوة لأقربائه.. وأصدقائه ويترك لصاحب الدروس فرصة إقناعهم بأسلوبه المؤثر.. وهكذا سنجد أن التضييق الأمنى.. والرغبة فى التفاخر.. والرغبة فى هداية العائلة ثلاثة أسباب يلخصها الداعية لانتشار الصالون الإسلامى.. لكنه يضيف سببًا رابعًا، «هناك سبب آخر هو أن رجال الأعمال الكبار لم يكونوا يريدون أن يترددوا على المساجد.. كانوا يشعرون أن هذا قد يسبب لهم مشاكل.. ويعرضهم للرصد من قبل أجهزة الأمن.. كان هناك احتمال لأن يتم تصنيف رجل الأعمال كصاحب فكر معاد للدولة. ورجال الأعمال لا يريدون هذا.. والحل هو أن يقيم رجل الأعمال حفل عشاء.. وأن يأتى له الناس فى منزله.. «رجل الاعمال له مصالح وأعمال ويخاف أن يحسب على تيار بعينه».

هكذا أصبحت نجماً

ربما تكون النقطة الأهم فى شهادة الشيخ «خالد عبدالله» أنها شهادة صادقة عن كيفية صناعة داعية من قبل جمهور متعطش لمن يقوده ويلعب معه دور المرشد الروحى، والمعلم الاجتماعى.. وهو يواصل شهادته قائلاً : "ما حدث هو أنى بدأت أذهب للبيوت.. بعض الناس قالوا لى كان يأتى لنا عمرو خالد.. لكنه انشغل أو سافر.. فهل يمكن أن تأتى لنا؟ طبعًا كنت أرحب جدًا.. ولكن عن ماذا أتكلم؟ أتحدى لو جاء لى أحد بدرس تكلمت فيه عن الاستنساخ أو فقه الزواج والطلاق.. أو عن شىء من هذه الأشياء.. لأنها لا تشغلنى، وأنا لى دروس كثيرة أتحدث فيها عن حقوق الأخوة، حق الجار وحق الزوجة.. حق الله.. وهكذا.. تكلمت أيضًا عن الصبر: وعن السماحة، وعن التواضع.. بعد ذلك دخلت فى

حياة النبى (ﷺ).. وحضرت درسًا عن مواقف ضحك فيها النبى (ﷺ)، وحكيت للناس عن مواقف من السيرة كان الصحابة فيها (بيعملوا إيفيهات) فى حضرة النبى (ﷺ)، وكان يضحك منها.. وأحد هذه المواقف ظل يضحك فيه سنة..، كنت أتحدث أيضًا عن مشاكل الأبناء، ومشاكل الزوجات وأعتقد أن قربى من سن الشباب وفهمى للغتهم جعلنى أقدر على مخاطبتهم.. فبدأت أحس أن لى دورًا مهماً جدًا»..

ولكن ما هو هذا الدور الذى يريد الدعاة أن يلعبوه..؟! «نريد أن نعيد البيت العربى المسلم كى يكون له أولويات، الآن كل اهتمام الآباء هو أن يلحقوا أطفالهم بالمدارس الأجنبية، وبعدها دبلومة الـ S.N.M والأشياء التى ظهرت فى هذه الأيام.. ولكن الآن أصبحت أتحدث من منظور أننا نريد أن نعيد للبيت دوره الإيجابى».

وكيف سارت الأمور بعد ذلك؟.. «بدأت أدخل البيوت، والحقيقة كان هناك سلبيات وإيجابيات، ومن السلبيات أن الباب أصبح مفتوحًا لأى شخص يريد أن يتناول عشاءً فاخرًا، وهذا حدث أمامى.. لدرجة أن صاحب بيت قرر أن يغلق بيته تمامًا أمام الدروس بعد هذا الموقف.. سمع بنفسه سيدة كانت تحضر الدرس وبعد العشاء قالت لجارتها، هل هذا هو العشاء؟! كانوا يقولون إن العشاء فاخر.. لكنه ليس هكذا!؟ طبعًا الرجل حزن جدًا لأن هذا لم يكن غرضه إطلاقًا من الدعوة للدرس.. وهو لم يعد لاستضافة الدروس مرة أخرى».

«الحقيقة أيضًا أن من واقع خبرتى لم أحب دروس البيوت لأنه لو جلس الرجال والنساء يستمعون سويًا للدرس يقال إن هناك اختلاطًا، ولو فصلنا الجنسين يقولون إن الرجال يتطلعون نحو المكان الذى تجلس فيه النساء ولو أدخلنا النساء فى غرفة النوم وأقمنا فاصلاً يقولون لنا لماذا تعقدون الأمور.. هذه الدروس فيها مشاكل كثيرة».

بعيدًا عن محاولة اقتناص إدانة أخلاقية لسلوكيات الصالون الإسلامى فإنى أعتقد أن المشهد السابق يصف حالة ارتباك لدى جمهور يريد أن يصبغ سلوكه العادى بصبغة تدين ويريد أن يجرى عملية تحويل لحفلات الاستقبال العادية ليحولها لصالونات دينية، ولأن ما يحدث.. يحدث لأسباب متنوعة ومتراوحة ما بين الرغبة الحقيقية فى الالتزام بنمط جديد للحياة لدى البعض، وما بين مجاراة الطقوس الجديدة لدى البعض الآخر يحدث الارتباك، ويحتار الرجال هل يغضون البصر أو يطلقونه تجاه نساء الصالون الناعمات، وهل يفصلون النساء عنهم فى المجلس أم لا؟ المفارقة أن الغالبية العظمى من جمهور الصالون الإسلامى من المهنيين. ورجال أو سيدات الأعمال والعاملين فى فروع الشركات العالمية وعدد كبير من السيدات اللآتى ينتمين لجمهور الدعوة الجديدة يعملن بنفس الوظائف.. لسن ربات بيوت، بعضهن طبيبات ومدرسات جامعيات ومهندسات، وهكذا يمارس أعضاء النخبة الجديدة الاختلاط فى أماكن ومكاتب العمل.. لكنهم لا يمارسونه فى صالونات المساء، وهكذا يقضى قطاع واسع من النخبة الجديدة فى مصر نهارات علمانية وأمسيات دينية.

وهل هناك ملاحظات أخرى على الدروس؟! «هناك أيضًا مساحة للتفاخر والمظهرة.. فبعض الناس يتفاخرون بالملابس وقصات الشعر.. وهناك نساء يأتين بالحجاب المتبرج.. مكياج.. وكوافير.. واستعراض للثقافة الدينية.. دروس البيوت أيضًا يكثر فيها الغيرة.. والتسابق بين الناس على استضافة الدروس».

أسلمة نادى الصيد
توبة البرجوازية

كان أحد أبرز التفسيرات التى تحاول الإجابة على سؤال كيف ظهر تيار الدعاة الجدد؟ هو التفسير الذى يقول إن الدولة ـ أجهزتها الأمنية على وجه التحديد - لعبت دورًا فى إطلاق هؤلاء الدعاة الذين يمكن وصفهم بالمعتدلين فى التفكير الأمنى فهم لا يحرضون على العنف ولا يسعون له، هم معتدلون إذن بالمقارنة بالجماعات الراديكالية العنيفة التى كانت قد وصلت لذروة المواجهة مع الدولة ومع المجتمع.. كان ذلك فى أواخر الثمانينيات وطوال سنوات التسعينيات.. وهى السنوات التى تكونت فيها ظاهرة الدعوة الجديدة.. لكن ذلك لم يكن كل شىء.. يمكن القول إن الأجهزة الأمنية تغاضت عن نشاط الدعاة الجدد.. لكنها لم تصنعهم.. كان هناك عوامل اجتماعية وسياسية أقوى هى التى صنعت الظاهرة وسمحت لها بالنمو بكل هذا الاطراد.

والحقيقة أن هناك عوامل أكثر أصالة فى بنية الظاهرة نفسها تفسر استمرار وصعود ظاهرة الدعاة الجدد، هناك عوامل أخرى خلقت هذه الحالة من التناغم المرحلى والظاهرى.. ربما بين ما هو قائم أمنيًا وسياسيًا واجتماعيًا وبين الدعاة الجدد. ولعل أهم هذه العوامل هو الانتماء الاجتماعى للجمهور.. هؤلاء الصفوة من أبناء الشرائح العليا للطبقة الوسطى والمنضمين إليها من الأغنياء الجدد، والعائدون من الخليج، والشبان الذين اكتسبوا مهارات جديدة من خلال تعليم متميز كفل لهم مزيدًا من المقاعد فى قطار الصعود الاجتماعى.

هؤلاء ليسوا بحاجة لتغيير النظام القائم ربما لأن لهم مصلحة كبيرة فى استمراره ، هم أيضًا غير مقتنعين بذلك الفهم الرسالى والثورى للإسلام والذى يدعو إلى تحطيم المؤسسات والبنى القائمة وإزالة الركام القديم من أجل إقامة يوتوبيا جديدة. كان هذا هو التصور السائد فى صفوف الحركة الإسلامية فى السبعينيات، وكان بشكل أو بآخر امتدادًا لأحلام تغيير العالم التى سيطرت على أذهان عشرات الآلاف مع اندلاع ثورة الطلبة١٩٦٨ .

مثل كل شىء له ثمن فإن ثمن التمرد والصدام كان فادحًا، كما أن هذا الرفض العنيف والغاضب يتناسب أكثر مع الشبان الفقراء فى الصعيد والمهمشين فى المدن الكبرى، أما أبناء النخبة الجديدة فيلزمهم خطاب آخر يوفر لهم تدينًا بلا خسائر. وهو ما حدث بالفعل مع مكاسب إضافية، وعلى المستوى الشخصى فإن الأفراد الذين يكونون هذا الجمهور ليسوا على استعداد لتقديم تضحيات

شخصية جراء التصادم مع السلطة. هم مهمشون سياسيًا متحققون اقتصاديًا وهم يريدون تدينًا معتدلاً .. والاعتدال هنا بالنسبة لهم هو البعد عن السياسة. فضلاً عن أشياء أخرى مثل تهميش بعض القراءات التى تُعلى من شأن الزهد والبعد عن التكالب على الدنيا لحساب قراءات أخرى تعلى من شأن الثروة. وتتحدث باعتزاز عن الصحابة الأغنياء الذين سَخَّروا ثرواتهم لخدمة الدين والإعلاء من شأن الإسلام.

هكذا يمكن فهم علاقة شيوخ الدعوة الجديدة بالسياسة وبالسلطة، فعندما تفجرت انتفاضة الأقصى صدم «عمرو خالد» بعض جماهيره حين أعلن رفضه للمظاهرات. وقال إنه يفضل استخدام سلاح الدعاء.. خاصة الدعاء فى أوقات السحر.. وقد اقترح «عمرو» على جمهوره أيضًا أن يخصص كل منهم يومًا فى الشهر يصوم نهاره، ويقوم ليله من أجل القدس. على أن يكون اليوم المقترح للصوم هو الخميس الأول من كل شهر، «عمرو» أيضًا أعلن أن القدس لن تتحرر إلا بعد أن يغالب كل واحد من المسلمين شيطان نفسه.. ويمتنع الشباب عن السلوكيات الخاطئة مثل مصادقة الفتيات دون إطار شرعى، كان يرى أن قضية القدس لن تحل إلا عندما يصبح عدد من يرتادون المسجد فى صلاة الفجر مساويًا لعدد من يرتادونه فى صلاة الجمعة.

وبجانب الحض على التمسك بالفضائل الأخلاقية والتدين الفردى كوسيلة لحل قضية فلسطين. اقترح عمرو على جمهوره أن يزيد من حملات مقاطعة البضائع الأمريكية وهو أسلوب احتجاج

مدنى يبدو مقبولاً من الأنظمة الحاكمة التى لا يزعجها شىء بقدر ما تزعجها المظاهرات الغاضبة. هكذا قدم أشهر الدعاة الجدد حلاً أخلاقيًا لقضية فلسطين واستغل الفرصة لينمى فى نفوس جمهوره نزعة الإيمان الفردى (طهر نفسك تتحرر القدس) وما طرحه «عمرو خالد» يطرحه الدعاة الآخرون مع اختلاف منابع تكوينهم ومساحات جماهيريتهم، وهذا الخطاب المضاد للاهتمام بالشأن السياسى، وغير الثورى والذى يعمل على نزع فتائل الرفض من نفوس الجماهير هو جزء من تكوين الظاهرة، ليس بسبب الضغوط الأمنية فقط، ولكن لأنه لا الداعية ولا جمهوره لهم مصلحة فى العداء مع النظام أو تغييره.

وإذا عدنا لداعية مثل «خالد عبدالله» فسنجده يروى قصة صعوده قائلاً: «الحمد لله وبسبب اعتدال أفكارى أعطانى جهاز أمن الدولة تصريحًا للخطابة فى مسجد أبى بكر الصديق كل يوم ثلاثاء، والحمد لله هذا الدرس كان خلفاً للشيخ «خالد الجندى» (أحد نجوم الدعوة الجديدة، له مشاكل أمنية..) ملحوظة (يقدم الجندى نفسه باعتباره أقرب الدعاة للنظام الحاكم، وهو قادم من خلفية غير سياسية ويحظى بصداقة عدد من المسئولين لكن قفشاته ونكاته الساخنة أحيانًا ما تحمل بعدًا سياسيًا. كما أن حياته الخاصة صاخبة)، ويواصل خالد عبدالله: «عُرض على أن أعطى الدرس بدلاً منه فوافقت وذهبت لأمن الدولة وقابلت الضباط.. ووجدتهم فى منتهى الأدب.. سألونى عن ماذا سأتحدث فقلت لهم سأتحدث عن كذا.. وكذا.. فقالوا لى هناك محظورات لا

نتحدث فيها.. وأنا عمومًا وبدون هذه المحظورات ضد ما يثير الناس، فى حرب العراق مثلاً (وقفت بيد من حديد ـ هكذا -! ضد المظاهرات، وقلت هذه خزعبلات؛ لأنه يدخل فيها العاطل.. والباطل واللص.. والنصاب. ومن يريد السرقة.. الجميع يدخلون فى المظاهرات.. وكل شخص يريد أن يخرج الكبت بداخله، وهكذا يتظاهر أنه يتحدث عن العراق، فى حين أنه - يتحدث عن مشكلته الشخصية.. ويبدءون يحرقون السيارات.. الإسلام لم يقل هذا.. وإذا كنا نريد أن نتحدث عن الجهاد فعلينا أن نربى أنفسنا - نفس فكرة العمل على ومع النفس - و(كرشى) و(كرشك) لابد أن يهبطا.. وعندما يكون عندى وعندك جسم رياضى.. وعندما يأذن الله سبحانه وتعالى بأن يكون هناك هجوم مباشر من عدو علىَّ. أبدأ فى الدفاع عن بلدى وعن عرضى وعن كل شىء، أما المظاهرات والصراخ والشد والجذب فهذا كله بلا طائل، وبالرغم من أنى قلت هذا الكلام. طُلب منى ألا أذهب للمسجد لمدة أسبوعين وقد نفذت الطلب، وبعد أن هدأ الجو.. عدت مرة أخرى، أنا لدىَّ نقد ولكنه نقد بناء، لا أريد للمجتمع أن يزداد انحلالاً؛ لأنه من الممكن أن أنحل أنا أيضًا».

لماذا يتدين (الهاى كلاس)؟

رغم أنى أستطيع الاجتهاد فى الإجابة على سؤال لماذا تقبل قطاعات واسعة من الطبقة الوسطى المصرية وخاصة فى شرائحها العليا على التدين إلا أنى كنت حريصًا على استطلاع الأمر من زوايا مختلفة.. وخاصة من زاوية الدعاة الذين يلعبون الدور الأكبر فى تديين هذه الطبقة.. ويرى «خالد عبدالله» أنه منذ بدايات التسعينيات وهناك إعادة تخطيط لحياة هذه الطبقة التى يرجع إقبالها على التدين والسلوكيات المحافظة لعوامل مختلفة.. أهمها هو أن المصريين متدينون بطبيعتهم، وأن الإفراط فى (الانحلال) والإقبال على متع الدنيا عادة ما يؤدى إلى حالة من الملل ومراجعة النفس، وبحسب خبرته فإن مراجعة النفس هذه قد تكون لعوامل ذاتية، أو قد يحركها مؤثر خارجى، فالشخص مثلاً قد يذهب لأحد دروس البيوت على أنه ذاهب لقضاء وقت ظريف وتناول العشاء

فيسمع هناك كلمة تغير حياته تمامًا ويعود للمنزل ليبكي. يرى «خالد عبدالله» أن الشخص المتحول يسأل نفسه: ما المانع من أن آكل وأشرب، وأذهب للمصيف، وللسينما وللمسرح.. وأنا ملتزم.. أستمتع بالدنيا ولكن ألتزم.!

أنا بتاع التيك أواي!

بشكل أكثر من ملحوظ تتشابه الموضوعات التى يتحدث فيها الدعاة الجدد، لدرجة تصل إلى حد التقليد، والتشابه بل والصراع على الموضوعات التى تصلح كمحتوى لدروس المساجد والبيوت وأشرطة الكاسيت وحلقات الفضائيات، وبشكل عام فإن الدروس كلها تدور حول الرقائق، وهو مصطلح علمى يرمز إلى مجموعة كبيرة من المواقف المؤثرة التى تنسب للصحابة والتابعين وتروى قصص تحول هؤلاء من طريق الفساد الأخلاقى إلى طريق الالتزام الدينى، ولفظ الرقائق نفسه مشتق من مصطلح ترقيق القلوب أى جعلها أكثر رقة واستعدادًا للبعد عن الخطايا الأخلاقية وبخلاف الرقائق فإن الجميع باستثناءات بسيطة ونادرة، يتحدثون عن الأخلاق ومن خلال موضوعات مثل: الصبر والتواضع.. يعلم الدعاة المستمعين كيف يكونون أكثر اتساقًا مع مجتمعاتهم، وكيف يصوغون

علاقات أكثر سلامًا واستقرارًا مع الآخرين، من زاوية أخرى سنجد أن سيرة الحياة الشخصية للنبى. وقصص الحياة اليومية لزوجاته ونساء بيته وعلاقاته بأصحابه خاصة المجهولين منهم، كل هذه القصص تشكل رافدًا مهمًا جدًا فى مضمون الدعوة الجديدة وتتسم هذه القصص بالتشويق وهو ما يؤدى لحالة من المتعة أثناء الاستماع لها، وخاصة مع طريقة الإلقاء المتميزة والدرامية التى يقوم بها الدعاة الجدد للقصص، التشويق عامل مهم أيضًا إذا وضعنا فى الاعتبار أن السوق هو أحد العناصر الرئيسية فى فكرة الدعوة الجديدة وأن الجمهور يدفع نقودًا فى مقابل الحصول على جرعة دينية، لكن هذا ليس هو العامل الوحيد وراء اختيار الحديث عن الأخلاق وقصص السيرة.. فالدعاة الجدد بطبيعتهم دعاة أخلاقيون فى المقام الأول يدعون للالتزام بالأخلاق والبعد عن الرذائل ويتبارون فى إظهار أثر ذلك على حياة مريديهم، وهم غالبًا ما يعقدون مقارنات بين حالة الالتزام والسمو الأخلاقى الموجودة فى القصص التى يروونها عن كبار الصحابة وبين ضعف الإرادة والتقصير الدائم والدنيوية المفرطة التى يجد الجمهور نفسه موصومًا بها بالمقارنة بالقصص التى تروى له عن مجتمع الصحابة، هكذا ستجد الداعية الأشهر «عمرو خالد» يكرر بشكل آلى سؤاله لجمهوره (شوف كانوا عاملين إزاى؟). والضمير هنا يعود على الصحابة بالطبع.. أو سؤاله الآخر الذى يتكرر كل خمس دقائق (فين إحنا من الكلام ده يا إخوانا)؟، ورغم أن القصص التى تروى يجانبها الدقة فى كثير من الأحيان خاصة وأن الهدف منها هو

إضفاء حالة من المثالية على مجتمع الصحابة الذين يكمن تميزهم الأكبر فى كونهم كانوا بشرًا عاديين غير منزهين عن الأخطاء، إلا أن حالة الندم التى تنتاب الجمهور من جراء المقارنة بين حياته البشرية العادية، وبين الحالة المثالية التى عاش فيها الصحابة والمسلمون الأوائل هى التى تؤدى إلى الرغبة فى مزيد من الالتزام..

وبخلاف كل هذه الأسباب فإن الدعاة الجدد يقبلون على هذه الموضوعات بسبب الرغبة فى الرهان على تغيير الفرد كأحد وسائل تغيير المجتمع، وهم أيضًا يفعلون هذا مجبرين، إذ إن تعليمهم المدنى وعدم كونهم من أبناء المؤسسة الأزهرية يؤديان إلى ابتعادهم عن الحديث فى أمور الفقه والعبادات. وهم إذا اقتربوا من الأمور الفقهية فإنهم يقتربون منها بسطحية شديدة ناتجة عن عدم التخصص، هذه السطحية ربما تحولت إلى ميزة تساعد على المزيد من التواصل مع جمهور هو أقرب فى طبيعته إلى جمهور (المول) الذى بات يفضل السطحية فى أشياء كثيرة ومتعددة مثل كلمات الأغانى ، ومعالجات الأفلام السينمائية، ودروس الدين أيضًا.

لكن الداعية «خالد عبدالله» يملك تفسيرًا آخر لإقبال الدعاة على الحديث فى الأخلاقيات.. ربما يكون صحيحًا فيما يخص بعض حالات الدعاة.. لكنه لا يصلح معيارًا عامًا وهو يقول إنه يختار الموضوعات الاجتماعية؛ لأنها قريبة من قلوب الناس.. كما أن الاقتراب من الفقه له أخطاره أو لأن (أنا أريد أن يكون هناك تفاعل بينى وبين الجمهور، لكن لو تكلمت فى الفقه أنا متأكد أن

اللغة التى سأتكلم بها لن تصل إلى قلوب الناس على الإطلاق، ولهذا ستجد أن المؤسسات الدينية الرسمية مثل الأزهر والأوقاف.. ليس لها الحظوة فى قلوب الكثير من الناس.. لماذا؟ لأن العلماء فيها يتكلمون بلغة لا تناسب العصر.. المنطق يقول خاطبوا الناس على قدر عقولهم ولكن عندما أشاهد برنامج حديث الروح ـ البرنامج الدينى الرسمى ـ أو أسمع فتوى لعملاق من عمالقة الأزهر. وحتى أصل للفتوى أكون قد تُهت وعندما يسأله أحد عن الحكم الشرعى يبدأ بمقدمة طويلة جدًا.. جدًا وعندما أصل للحكم الشرعى أكون قد تُهت.. ليه؟.. أنا بتاع الماكدونالدز والتيك أواى.. فَقُلّ لى بسرعة حلال ولا حرام.. ولما تحس إن أنا عايز أعرف زيادة حملنى زيادة، إدينى الحُكم الشرعى وأقفل معايا. وإن أردت منك استزاده.. إدينى استزادة.!)

الفصل الثالث

داعيات ضد التهميش!

لا يكتمل الحديث عن الدعوة الجديدة فى مصر دون التعرض لظاهرة الداعيات السيدات.. إنها الظاهرة الأكثر انتشارًا وتأثيرًا بل واتساقاً مع فكرة الإسلام من أجل المجتمع.. أو الإسلام الاجتماعى. وربما لم تعرف الكثير من الداعيات السيدات طريقهن نحو الشهرة الإعلامية.. أو الانتشار الجماهيرى العابر للحدود عبر القنوات التليفزيونية الفضائية. ربما أيضًا لم تنتشر الكثير من الداعيات عبر وسائط الكاسيت والفيديو والـ C.D التى يبيع منها الدعاة الرجال آلاف النسخ، والتى تعتبر هى فى حد ذاتها إحدى وسائل انتشار الدعوة الجديدة، ربما كان هذا هو الوضع حاليًا لكن الأكيد أنه لن يكون كذلك فى المستقبل. وما نراه الآن من ظاهرة الداعيات السيدات ليس سوى قمة جبل الثلج.. والداعيات السيدات المنتشرات فى دروس البيوت والصالونات الإسلامية.

والجمعيات الخيرية النسائية يقاومن التهميش بطريقتهن الخاصة، وربما كانت أفكار مثل أن صوت المرأة عورة هى التى تقف وراء عدم رغبة الداعيات فى الانتشار الجماهيرى الكبير الذى من شأنه بطبيعة الحال أن يضم لجمهورهن من النساء جمهورًا آخر من الرجال.. ربما كانت هذه الأفكار هى السبب. لكن بعض الداعيات بالفعل تجاوزن هذه الفكرة.. وشاشات الفضائيات بدأت بالفعل فى استضافة بعض الداعيات الجديدات. وإذا تمسكنا بتعريف مصطلحى للداعيات الجديدات فسنجد أنه نفس التعريف الذى ينطبق على الدعاة الجدد.. داعيات من خارج المؤسسة ومن ثم فإنهن لسن أولئك الطالبات الأزهريات اللآتى تفوقن فى الدراسة ليتخرجن كعالمات أزهريات. يمارسن التدريس فى جامعة الأزهر ويتحدثن كثيراً عن فقه النساء.. من بين هؤلاء الأزهريات ستجد أسماء لامعة مثل: د. سعاد صالح.. وآمنة نُصير وعبلة الكحلاوى.. وقد حولتهن البرامج الدينية على شاشات الفضائيات إلى نجمات.. لكنهن يبقين بحكم التكوين والدور نجمات فى مجال الدعوة التقليدية، وإذا شئنا الدقة فإنهن يبقين فى منطقة وسط بين الدعوة التقليدية والدعوة الجديدة.

فهن تقليديات بحكم التكوين العلمى، وجديدات بحكم الموضوعات التى يتحدثن فيها، والوسائط اللآتى يتحدثن من خلالها. أما الداعيات الجديدات.. فالمسألة تختلف، وعلى عكس الفكرة التقليدية الشائعة فى الذهنية العلمانية والتى تقول إن اعتناق امرأة ما للخطاب الدينى التقليدى الأصولى والسلفى

بطبيعته يعنى أنها تقبل بمزيد من التهميش نظرًا لعدم حدوث اجتهادات واضحة فيما يخص قضايا مثل: عمل المرأة والقوامة والحجاب والميراث.. على عكس هذه الفكرة فإنى أعتقد أن انضمام آلاف النساء لدروس المساجد والبيوت ومراكز إعداد الداعيات.. هو بمثابة صرخة ضد التهميش. ومحاولة جادة للخروج من إطار الزوجة الجميلة التى تبقى فى المنزل كأحد المقتنيات الغالية لزوج ثرى. إلى فضاء أكثر رحابة تستطيع المرأة فيه أن تكون أكثر تأثيراً فى حياتها الشخصية وفى حياة الأخريات دون أن تدفع ثمنًا فادحًا للاصطدام بالمؤسسات الاجتماعية القائمة.. والتى ظلت نساء الطبقة الوسطى واقعات فى أسرها لسنوات طويلة. كانت هذه هى الإجابة التى وجدتها وأنا أسأل لماذا تقبل ربات البيوت المرفهات فى الأحياء الراقية على الدروس الدينية بكل هذا الشغف؟ ولماذا يتحول معظمهن إلى داعيات بشكل آلى.. تبدأ السيدة تلميذة فى درس دينى بمسجد النادى.. وبعد فترة قصيرة تحتفل بها زميلاتها.. يُدشنها كداعية جديدة.. بعد أن استطاعت أن تلقى أول درس لها. هذه الاحتفالات الصغيرة التى تأخذ شكلاً أقرب لحفلات أعياد الميلاد هى فى رأيى تعبر عن فرحة صادقة ومزدوجة.. فالداعية التى لعبت دور الأستاذ تحتفل بأنها قد أصبحت مؤثرة تستطيع أن تغير فى حياة الآخرين، أما الداعية التى تخرجت حديثًا فهى أيضًا على أبواب مرحلة أخرى تستطيع أن تسميها.. مرحلة الخروج من الهامش. والهامش هنا هو هامش الحياة الخاصة الذى يتسع ليشمل عالم الوظيفة أيضًا إلى جانب

مهام المنزل.. ورعاية الأبناء لكنه يبقى مجرد هامش لا يتسع لدرجة المجال العام الذى تخرج له المرأة حين تصبح داعية.

بشكل أو بآخر نستطيع أن نقول إنه لا توجد ظاهرة بلا جذور، كما أنه لا توجد ظاهرة منفصلة عن غيرها من الظواهر بشكل كامل حتى لو بدا الأمر كذلك، وبالنسبة لظاهرة الداعيات السيدات سنجد أن لها اتصالاً ظاهرًا بالجمعيات الخيرية الإسلامية وهى جمعيات زادت بشدة طوال سنوات الثمانينيات والتسعينيات، حيث تتجمع النساء المسلمات للقيام بأعمال خيرية مثل كفالة الأيتام، وبحسب الدراسة التى أجرتها الباحثة شيرين حافظ بعنوان «صيغ التمكين» فإننا بإزاء نوع جديد من الناشطات النسويات الإسلاميات أيضًا واللاتى يرفضن بالضرورة مصطلح (النسوية Fiminism).. لأنه مصطلح غربى ويرين أن كل الناشطات لسن بالضرورة نسويات على الطريقة الغربية، ورغم أن هناك ما يزيد عن ألف جمعية نسائية دينية فى مصر إلا أن كل النساء من عضواتها لسن بالضرورة من الداعيات أو حتى من جمهور الداعيات الإسلاميات، والعكس صحيح أيضًا فالكثير من الداعيات.. وخاصة من بنات الشرائح العليا من الطبقات الوسطى عرفن طريقهن إلى الدعوة مباشرة من خلال حلقات الدروس التى تنظمها سيدات عضوات فى النادى.. أو ربات بيوت تحولن إلى داعيات وقُدن صديقاتهن القدامى إلى هذا العالم الجديد والراقى. الذى يستطعن أن يكن فيه إيجابيات، وأن يتخلصن ولو بشكل مؤقت من السلوكيات السلبية التى تولدها حالة الفراغ عند سيدات النادى الراقى مثل:

النميمة والغيبة والتنافس والغيرة، بل إن نساء النادى اللاتى كثيرًا ما يشكين من انشغال الأزواج فى أعمال (البيزنس) ومن النساء الأخريات فى حياة الزوج ومن حالات المراهقة المتأخرة التى تنتاب الأزواج بينما توشك شمس العمر على المغيب، هؤلاء النساء صار الآن بوسعهن أن يحظين بمزيد من الاحترام والتأثير والقوة، فى مواجهة الأزواج المنشغلين.. أو هكذا بدا لى من خلال المقابلات التى أجريتها. وللأسباب التى تم ذكرها من قبل فإن الداعيات السيدات لم يعرفن الشهرة الجماهيرية بالقدر الذى يعرفه الدعاة الرجال.. لكن هذا لا يعنى أن الدعوة النسائية ليست بلا نجمات. ففى أوائل عام ١٩٩٨ سطع نجم الداعية «شيرين السحار» التى استطاعت اجتذاب الآلاف من السيدات للدرس الذى كانت تلقيه فى أحد مساجد حى مصر الجديدة الراقى، «شيرين» التى كانت تنتمى مثل غيرها من مشاهير دعاة وداعيات الدعوة الجديدة إلى أسرة كبيرة وثرية أسسها الناشر والأديب عبد الحميد جودة السحار.. كانت مثل غيرها من الداعيات أيضًا ربة منزل حصلت على شهادة فى العلوم السياسية فى بداية الثمانينيات لكنها فضلت أن تتفرغ لرعاية بيتها وأبنائها. ومع منتصف التسعينيات كان على «شيرين» أن تلتحق بمعهد إعداد الداعيات التابع لوزارة الأوقاف المصرية وأن تتخرج فيه.. لتحصل على رخصة تؤهلها لممارسة الوعظ فى مساجد الوزارة. وفيما بعد سنجد أن معاهد إعداد الدعاة التابعة للأوقاف كانت بمثابة حضانة تخريج للدعاة الجدد، ولاسيما للداعيات.. فهى من حيث وقت الدراسة وشروط الالتحاق

تبدو مناسبة تمامًا لأولئك الذين حصلوا على تعليم مدنى ثم أرادوا أن يغيروا مسار حياتهم وأن يلتحقوا بقطار الدعوة لسبب أو لآخر.. ولعل المفارقة أن المعاهد التى باتت تخرج الآن هذا الطراز الذى نتحدث عنه من الدعاة الجدد بملامحهم الشخصية. والطبقية المعروفة.. هذه المعاهد هى التى قامت طوال سنوات الثمانينيات بتخريج الدعاة السلفيين الذين كانوا يملئون باحات المساجد الكبيرة فى الأحياء العشوائية، وبدلاً من عضوات نادى الصيد اللاتى بتن يتزاحمن على الالتحاق بمعهد إعداد الداعيات فى حى الدقى الراقى. تستطيع وبالقياس أن تدرك أن النساء الفقيرات القادمات من الأحياء العشوائية المجاورة.. إمبابة والوراق.. كن بنقابهن المميز يحتللن مقاعد الدرس فى المعهد نفسه طوال سنوات الثمانينيات، أو بالتحديد طوال تلك السنوات التى شهدت صعود نجم الحركات الراديكالية العنيفة والمرتبطة اجتماعيًا بالمهمشين على حواف المُدن.. ورغم شيوع تفسير يقول بأن هدف وزارة الأوقاف من التوسع فى إنشاء المراكز كان الدخول فى منافسة مع الأزهر الذى بات ـ بحكم الأمر الواقع ـ هو المؤسسة الوحيدة المنوط بها تخريج وعاظ يستطيعون اعتلاء منابر المساجد، هذا التحليل لا يخلو من الصحة.. ولكننا نستطيع أن نفهمه فى إطار آخر.. هناك مؤسسة رسمية تحتكر التعليم الدينى (الأزهر)، وهناك طوال الوقت قوى أخرى فى الملعب الدينى تريد أن تعبر عن خطابها الخاص، وعن مصالحها الطبقية ورؤيتها للعالم.. هذه القوى سواء كانت مُمثلة فى فقراء الأحياء الهامشية فى بدايات الثمانينيات، أو أبناء الطبقات

الثرية فى أواخر التسعينيات.. تسعى لإيجاد قناة بديلة تنفذ منها إلى المشهد الدينى.. حتى لا تتركه حِكرًا للمؤسسة الرسمية الدينية، وهكذا سنجد حلولاً مختلفة.. أبرزها هو الدراسة فى معاهد إعداد الدعاة والداعيات التابعة للأوقاف، وهى دراسة مسائية تمتد لمدة عامين وتؤهل الذين يجتازونها للعمل كوعاظ فى وزارة الأوقاف، وسنجد أن هناك منافذ أخرى أكثر ملاءمةً لأبناء الدعوة الجديدة مثل: الجامعة الأمريكية الإسلامية والجامعة الإسلامية.. وهى جامعات مسجلة رسميًا فى أمريكا، ولكنها وقعت بروتوكول تعاون مع جامعة الأزهر تتيح معادلة شهاداتها وامتحاناتها مع الجامعة العريقة. وهكذا سنجد أننا بإزاء جامعة أزهر قطاع خاص أو جامعة أزهر أمريكية يستطيع الطالب أن يلتحق بها فى مقابل ٤٠ دولارًا لكل ساعة دراسة فى هذه الجامعة.. التى تعمل وفق نظام الدراسة بالمراسلة. سجل معظم الدعاة الجدد أسماءهم كطلاب.. والهدف هو الحصول على شهادة علمية موثقة تنفى التهمة التى طالما رُمى بها الدعاة الجدد من قبل المؤسسة الرسمية.. أنهم غير مؤهلين علميًا. هكذا ستجد فى سجلات الطلاب القدامى أسماء مثل «عمرو خالد».. و«صفوت حجازى»، أما إذا أردت أن تخمن أسماء نجوم الدعوة الجديدة فى السنوات القادمة فعليك أن تبحث فى سجلات الطلاب الجدد الراغبين فى الدراسة فى جامعة الأزهر الأمريكية.

الخروج من الهامش!

تستطيع النساء أن يخلقن عالمهن الخاص، بعيدًا عن هيمنة الرجل أيًا كانت الظروف.. وأيًا كانت الثقافة السائدة، ولعل هذا ما تشير إليه دراسة تجمعات الداعيات السيدات من نساء الشرائح العليا للطبقة الوسطى المصرية.. وفى عالم الداعيات النساء ومع مزيد من التأمل تستطيع أن تخرج بنتيجة مؤداها أن النساء يبحثن عن عالم خاص بهن.. تحت العباءة الإسلامية. ولعل هذا المفهوم هو ما عبرت عنه الباحثة «شيرين حافظ» فى دراستها (صيغ التمكين) - دار نشر الجامعة الأمريكية - والتى خلصت فيها إلى أن الجمعيات الخيرية الإسلامية النسائية هى بمثابة إعلان عن حركة نسوية إسلامية رغم أن الناشطات من الإسلاميات يرفضن هذه التسمية. وبالنسبة لكاتب السطور فقد كانت مقابلة مجموعة من الداعيات من عضوات نادى الصيد والتحاور معهن هى وسيلتى

للإجابة على الأسئلة التى تدور فى ذهنى. وقد لفت نظرى أن بعضهن عضوات فى جمعية خيرية نسائية بالفعل يقع مقرها على الحد الفاصل بين حى المهندسين الراقى وحى بولاق الدكرور العشوائى، وفى حين كان الرفض هو الجواب الذى واجهتنى به رئيسة الجمعية «منى صلاح» التى تطالعنى صورتها من آن لآخر على قناة اقرأ الفضائية، فإن حوارًا مثمرًا انفتح بينى وبين مديرة الجمعية السيدة «أشجان عبد الحميد» والتى قادتنى إلى نادى الصيد.. وفى نادى الصيد كان علىّ أن أركز أسئلتى وأن أحاول أن أعثر على إجابة للسؤال.. لماذا باتت نساء النادى يفضلن اعتزال جلسات النميمة المشمسة فى الـ (جاردينيو). و(التيرو) لصالح البقاء لوقت أطول فى مسجد النادى؟.

ولم يكن كل من قابلتهن من الداعيات. كانت هناك داعية رئيسية هى الأقدم.. وهى أيضًا الواعظة الرسمية لمسجد النادى. وكانت هناك تلميذات عمرهن أحدث فى عالم الالتزام الدينى. ومن بين سبع نساء قابلتهن فى جلسة واحدة.. لم يكن هناك اختلاف واضح فى المستوى الاجتماعى. ولا التعليمى كان هناك تباين فى الأعمار.. كانت الحاجة (أغانى شاكر) هى المرشدة الروحية لمجموعة النساء اللاتى يحضرن دروسها فى مسجد النادى. كلهن كن طالبات فى معهد إعداد الداعيات.. كانت المناسبة هى الاحتفال بتخرج السيدة «سوزان» خمسينية العمر من المعهد وإلقاؤها أول درس لها. تحولت من تلميذة إلى داعية.. أخبرتنى السيدة الفاضلة أنها استقالت من وظيفتها كمديرة كبيرة بأحد البنوك.. كانت

سعيدة جدًا. وتتحدث عن الحب فى الله.. وعلاقة الأخوة التى تربطها بزميلاتها فى المجموعة. كانت سعادتها البالغة والأسلوب المهذب جدًا فى التعامل الذى يفرضه نمط الأخوة الإسلامى، فضلاً عن تهذيبها الطبيعى كسيدة تنتمى للطبقة الوسطى المحافظة.. كان هذا التهذيب زائدًا عن الحد. وبدا لى أن ثمة اصطناع.. لم تكن السيدة الفاضلة تصطنع الأدب.. لكنها كانت تصطنع فى داخلها حالة من حالات اليوتوبيا.. كانت قد أمسكت بيقينها الخاص. أو هكذا بدا لى.

حين أخبرتنى السيدة (س) أنها كانت مديرة كبيرة واستقالت. دخلت المعلومة إلى ماكينة التفسير الآلية فى عقلى (١).. هذه سيدة تدينت فتركت عملها (٢) تؤمن بأن عمل المرأة محرم. بعد ثلاث دقائق من النقاش معها.. اكتشفت أنها نقلت لى المعلومة مغلوطة.. بشكل أو بآخر.. هى (١) استقالت من عملها. لسبب أو لآخر.. (٢) أحست بالفراغ. (٣) حاولت البحث عن معنى وعن شاغل. (٤) التزمت دينيًا ثم تحولت لداعية هاوية. ثمة فارق كبير بين الترتيب الأول.. والترتيب الثانى كان المعنى النهائى والذى ستؤكده لكم السطور السابقة.. إن ظاهرة الدعوة النسائية فى مجملها، هى صرخة ضد التهميش.

من التسوق.. إلى الدعوة

كانت السيدة (أغانى) هى مدخلى إلى المجموعة.. هى المعلمة الأكبر لهن.. يحببنها ويناديها بالحاجة. كان من السهل أن أكتشف أنها ليست متعمقة فى العلوم الشرعية.. لا يهم.. هى ربة منزل أرادت أن تأخذ بيد زميلاتها نحو دنيا جديدة. يشعرن فيها بأنهن أفضل، وأكثر اتساقًا مع أنفسهن، كان من بين الحاضرات أستاذتان بالجامعة وطبيبة ومهندسة.. ودارسة للعلوم السياسية.. وحين سألتهن عن أسباب تحولهن للدعوة أجبن إجابات منطقية قالت واحدة إن زوجها توفى. وقالت أخرى إنها طلقت وفقدت بطولة الجمهورية فى ألعاب القوى فى آن، وقالت أصغرهن إنها تدينت؛ لأن قريبًا شابًا لها قد مات وهو فًى سن صغيرة جدًا. إذا عدنا للسيدة (أ)؛ فسنجد أنها أيضًا صنعت لنفسها عالمًا جديدًا وبدا لافتًا لى أن السيدة برغم زيها الأسود المميز وعباءتها السوداء

الفضفاضة، ونقابها الذى ترتديه أحياناً وتخلعه أحيانًا . قالت إنها ترتديه فى الشارع.. وتخلعه وهى مع صحبة آمنة، لاحظت أنها تتعامل مع الجنس الآخر بثقة ربما تعود إلى الطريقة التى كانت تربى بها بنات الأسر الموسرة فى الماضى، حيث لم يكن الاختلاط مُجرمًا . ولم تكن قد انتشرت بعد فوبيا (الرجال الغرباء). التى تصيب بعض النساء عن حق أحيانًا، وعن ادعاء فى أحيان أخرى، هذه الثقة فى التعامل مع غريب من الجنس الآخر كان مردها فى نظرى إلى النشأة الطبقية، السيدة (أ) حدثتنى بتلقائية كبيرة تشى بأنها لا تقسم العالم ذلك التقسيم التقليدى ـ أعداء وأصدقاء ـ وهى قالت إنها ربة منزل. تخرجت فى إحدى الكليات النظرية فى بداية الثمانينيات. وكما فهمت فقد كان لديها طموحات كبيرة للعمل فى مجال الإعلام، لكن هذه الطموحات تحطمت على صخرة الزواج. السيدة (أغانى) قالت إنها بدأت طريق الالتزام منذ ست سنوات وبالتحديد فى عام ١٩٩٨ . حين انضمت لدرس لتجويد القرآن الكريم كانت تنظمه سيدة فاضلة كانت زوجة لأحد سفراء مصر فى الخارج. تقول السيدة (أ) إنها عانت فى البداية فى تجويد القرآن لكنها فى النهاية تمكنت من إتقان أحكام التلاوة. وسنعرف منها فيما بعد أن دروس التجويد تنتشر انتشارًا كبيرًا بين سيدات هذه الطبقة بسبب رغبتهن فى قراءة القرآن بمفردهن.

أسأل السيدة عن حياتها قبل الالتزام فتقول: كانت حياة فارغة.. لقاءات مع شلة (الدنيا) _ صديقاتها القديمات - تؤكد أنهن مازلن صديقاتها حتى اليوم، تصفهن ضاحكة بأنهن شلة

الدنيا. فى محاولة لتمييزهن عن صديقاتها الجديدات المتدينات (شلة المسجد) تسترسل.. «كنا نجلس فى النادى بالنهار بعد أن يذهب الأولاد للمدرسة، ونترك بعضًا فى وقت الغداء، ثم نعود لنتقابل فى المساء»، تتذكر بكثير من المحبة «كنا نسمع فيروز ليل نهار.. وكنا نسافر لأوروبا كثيرًا.. بالذات باريس. رحلات تنظمها إدارة النادى بالتعاون مع شركات السياحة». أسألها عن السبب الذى جعلها تغير نمط حياتها فتجيب «الله سبحانه وتعالى وضع حب القرآن فى قلبى.. فى البداية واجهت صعوبة ولكنى تمكنت من التجويد فى ستة شهور. بعدها دخلت مركز إعداد الداعيات فى العجوزة وتخرجت بعد سنتين. ثم طلب منى د. عبد الباسط محمد أن أتولى إلقاء درس التجويد فى النادى يومين فى الأسبوع»

- د. عبد الباسط موضوع فى حد ذاته هو أستاذ فيزياء حيوية سافر للسعودية وعاد بمؤلفات ضخمة عن الطب النبوى.. يعالج بالحبة السوداء.. فى عيادة قريبة فى الحى الراقى نفسه. تواصل «وأنا الآن والحمد لله أدرس التجويد للسيدات فى مسجد نادى الجزيرة».

حين سألت السيدة (أ) عن سبب بقائها فى المنزل وعدم خروجها للعمل.. أجابتنى بقدر كبير من الصراحة والصدق وهما صفتان تستحقان الاحترام الكبير «ابتلانى الله بزوج سيئ جدًا.. من أسوأ الناس.. كنت حين خطبنى أتدرب فى صحيفة كبيرة؛ لكنه طلب منى أن أجلس فى المنزل.. بعدها أنجبت أبنائى.. حياتنا لم تكن مستقرة. ولولا ضغوط عائلتى لتركته منذ فترة». وأسألها عن

موقفه من التغير الذى طرأ على حياتها منذ ست سنوات فتقول: «هو متضايق جدًا من أنى أصبح لى حياة أخرى.. وأن الله يسر لى نفع الناس.. لا يعجبه هذا» وأسألها عن موقف عائلتها من ارتدائها للنقاب فتقول: «يرفضون.. ويُضيّقون علىّ بشدة. وإخوتى منعوا مساعداتهم المالية لى. حتى أتوقف».

ربما كانت السيدة (أ) نموذجًا استثنائيًا.. ربما كان هناك من يشبهها.. ربما كن الأغلبية.. أو الأقلية؛ لكن الأكيد أنها ومن يشبهنها لسن طرفًا فى لعبة الدين والسوق، لا يعظن مقابل أجر، لا يبعن شرائط كاسيت، لا يتلقين العطايا من رجال الأعمال بحجة حبس الوقت. مابدا لى من العينة التى قابلتها سبع نساء كلهن عضوات فى نادى الصيد، وطالبات فى معهد إعداد الداعيات أنهن نساء يبحثن عن خلاصهن الخاص.. بعيدًا عن قهر الأزواج أحيانًا، وبعيدًا عن الإهمال المتعمد أحياناً.. وبعيداً عن الأزمات الشخصية فى أحيان أخرى.

وبشكل عام لم أكن بحاجة لبذل كثير من المجهود كى أدرك أن السيدة (أ) التى حظيت باحترامى البالغ والعميق ليست على قدر كبير من الثقافة الدينية لكنها تؤثر فى زميلاتها بمزيج من الصدق والطاقة الإيجابية، والمثل الذى تضربه لهن فى إمكانية الخروج من الهامش إلى عالم التأثير. وهى بادرتنى بأنها لا تحب جماعة الإخوان المسلمين والجماعات الأخرى. وذكرت لى سبعة اعتراضات لها على الجماعة لم أجد منها ما يستحق التسجيل حيث بدت لى بمثابة اجتهادات خاصة بها فى إطار فهمها الخاص لدور الجماعة

وتاريخها. وهى قالت إنها تتحدث فى المسجد عن تربية الأبناء، والحياة الزوجية السعيدة، والحب فى الله. وهى أيضًا يضايقها جدًا أن بعض السيدات يحضرن الدرس بغرض المجادلة وإحراج المتحدث. ورغم أنها تشكو من الرياء الذى يدفع بعض السيدات لتنظيم دروس البيوت، إلا أنها ترى أن كل الدروس فى أحياء المهندسين والدقى يلقيها أناس معتدلون.. أما التطرف والتعصب كله ففى حى إمبابة المجاور.. وهو رأى بدا لى بسيطًا وعميقًا جدًا فى آنٍ واحد.

الخروج من الأزمة

بملامحها الشقراء.. وحجابها الأنيق بدت لى د.(فادية) وكأنها أميرة إنجليزية قررت اعتناق الإسلام. د (ف.) أستاذ مساعد بإحدى الكليات العملية بجامعة القاهرة، ملامحها أرستقراطية، وطريقة حديثها تشى باعتداد مبالغ فيه بالنفس.. عرفتنى بنفسها قائلة إنها أستاذ مساعد فى الجامعة. وطالبة فى معهد إعداد الدعاة..! ولكن فيما لا يخص (الفتيا) - الفتوى - لغتها مزيج من العربية والإنجليزية وقد عللت ذلك بأن الدراسة فى كليتها باللغة الإنجليزية. وقالت لى إنها منذ فترة طويلة بدأت فى إعطاء الدروس فى السيرة النبوية، والحديث.

احترامًا منى لطريقة د. (ف) ولأسلوبها الحاسم فى التعبير عن نفسها.. قررت أن أكون أكثر تحديدًا وسألتها: ما أهم مصادر ثقافتك الدينية؟

ـ عند اختيارى لنوعية الكتب كنت أميل لأن تكون كتبًا (أوريجينال). أصلية. كتب نصوص كبيرة ـ قالتها بالإنجليزية ـ لأناس معروفين.. تعرفت على أسماء العلماء الكبار.. من أحد الزملاء، وبدأت أحرص على سماع العلماء الأزهريين (الأكاديميين)؛ وهذا لأننى أستاذة فى الجامعة.. وتكوينى العلمى ساعدنى أن أتجه اتجاهات سليمة. ووجدت أنه لكى أرتب عقلى علميًا فلابد أن التحق بمعهد الدعاة، وبالفعل اجتزت المقابلة الشخصية وسأبدأ الدراسة قريبًا.. وآمل أن تتحسن لغتى العربية.. لأن دراستى كلها (بالإنجلش).

ولكن لماذا قررت د. (ف) أن تنحى قليلاً اهتماماتها كأستاذة فى تخصص علمى مهم.. وأن تتحول إلى داعية.. هل هو احتياج روحى؟ هل هى مجاراة لموضة بين نساء طبقتها؟ أسألها بشكل مباشر.. لماذا قررت أن تكونى داعية؟ تجيب: الناس طلبوا منى أن أكون داعية ثم هناك سبب روحانى بحت هو أنى رأيت رؤية! رأيت نفسى وأنا أعطى درسًا! وكنت قرأت أن ثواب درس العلم لمن يلقيه بألف ركعة وهذا هو ما جعلنى أقرر أن أكون داعية. وعن طبيعة جمهورها تقول: سيدات كثيرات يقبلن على الدرس الذى ألقيه، وهناك شباب كثيرون يحضرون لى. ولكن الشباب يحبون أكثر مدام (نسرين) لأن سنها صغير. وهناك أيضًا الآنسة (راوية)! وبشكل عام الشبان يحبون الداعية صغير السن.. والناس دائمًا تميل للداعية الذى فى سنها.

- ولكن كيف التزمت د (ف) دينيًا؟

قبل الالتزم كنت بطلة الجمهورية فى رياضة العدو.. ثم حدثت لى مشاكل؛ لأن الله يطهر الناس بالمشاكل.. ثم من أراد الله به خيرًا يفقهه فى الدين.

وبما أنه كان من المفيد لى وأنا أبحث ظاهرات داعيات الصفوة هذه.. أن أذكر نفسى، ومن ثم أذكر القارئ.. بأنه لا يوجد شىء غريب.. من الأكيد أن هذه ظاهرة تستحق الدراسة.. والأكيد أيضًا أنها تعنى مزيدًا من الفضاء الإسلامى للنساء.. يمارسن فيه حريتهن بعيدًا عن هيمنة الرجال، لكن الأكيد أيضًا أننا أمام نساء - هذه الشريحة تحديداً - يمارسن حريتهن الخاصة.. أو يبحثن عن خلاصهن الخاص.. وعلى حسب المؤشرات التى رأيتها فإن هناك آلافًا من النساء اخترن هذا الطريق تتفاوت درجات الإخلاص والصدق.. ربما.. لكن هذه ظاهرة تنتشر بشدة.. على الأقل تنتشر بين نساء هذه الشريحة العليا.. من الطبقة الوسطى. وحين كنت أسأل السيدات عن تفسيرهن لانتشار ذلك النمط من الحياة الذى يسمينه (التزامًا).. فى التوقيت نفسه، كن يجبن إجابات ميتافيزيقية من عينة أن الله قد أذن بهذا الآن.. أو أن الناس متعبون للغاية.. أو أن الإسلام بات ينتشر فى كل مكان.. ومع احترامى لكل هذه التفسيرات.. فقد كنت أبحث عن تفسير اجتماعى.. لذلك طرحت السؤال على د. (نادية)، وهى أستاذ بكلية طب الأسنان وفى الوقت نفسه طالبة بمعهد إعداد الداعيات! ورغم

إنها بدت لى أقل رفاهية من زميلاتها إلا أنها على الأقل بحكم وضعها العلمى والمهنى تنتمى تقريبًا لنفس الشريحة، د. (نادية) تقول إنها التزمت دينيًا من خلال مسجد النادى: «وأنا أصلى وجدت مجموعة سيدات يدرسن التجويد وحفظ القرآن.. حضرت معهن عدة مرات.. وفى مرة قلن سنسمع الأجزاء التى حفظناها.. فامتنعت عن الحضور.. وقتها كان زوجى قد توفى حديثًا.. وكانت الدروس فى المسجد عن الصبر فأحسست أن هذه الدروس مرسلة لى. أبنائى كانوا صغارًا جدًا.. وكنت أشعر أن الدنيا سوداء.. وكنت أقول.. لماذا أنا بالتحديد يحدث لى كل هذا؟ ولكن الدرس الذى حضرته كان بمثابة رسالة لى.. ومن وقتها بدأت طريق الالتزام».

لعل السمة الرئيسية للنساء اللاتى ينخرطن فى مثل هذه التجمعات الاجتماعية على أرضية دينية، أو الصالونات النسائية الإسلامية أن كلهن نساء عاملات وذوات حيثية. هذه هى السمة الغالبة وحتى اللاتى لا يعملن منهن يبحثن عن عمل إذا ما اقتضت الظروف ذلك، بل إن الموقف من العمل هو الذى يحدد موقف بعض النساء من الانخراط فى مجموعة دينية ما أو لا، وبشكل عام يمكننا أن نقول إن نمط الصالون النسائى الإسلامى.. هو الأكثر اعتدالاً مع فكرة عمل المرأة ونزوعها لإثبات وجودها المهنى والشخصى وهو ما لا يقارن بالخطاب السلفى الذى كان سائدًا حتى سنوات قليلة.. وهو ينطلق من فرضيات مثل أن صوت المرأة عورة وعملها محرم.. هذه قضايا تبدو محسومة تمامًا لدى المجموعات النسائية الإسلامية فى الأوساط الراقية.. وإذا عدنا

لمحدثتى د. (ن) سنجد أنها سعيدة؛ لأنها أخيرًا اهتدت للمجموعة الدينية التى تناسبها فهى قالت لى إنها تحضر الدروس الدينية النسائية منذ فترة طويلة، لكنها كانت تعانى من مشكلة كبيرة، اختصارها أنها كانت تقابل بهجوم كبير سواء من الحاضرات أو من الواعظات اللاتى يلقين الدروس.. لماذا؟.. «البعض هاجمنى لأننى لا أرتدى النقاب.. وهاجمنى آخرون لأننى أعمل.. وطالبونى بعدم العمل.. وطالبنى آخرون بألا أذهب للعيادة! أحسست أن هذا لا يمكن أن يكون ديننا، لأنى طالما قرأت أن السيدات كن يخرجن مع الرسول (ﷺ) للحرب، وكنت أقول لماذا نحن إذن مطالبات بأن ننفذ الآية (وقرن فى بيوتكن).. فى الدروس كانوا يقولون إن معناها أن نجلس ونرتدى الملابس السوداء.. ولا نتحرك من البيت، ولكن الحاجة (أغانى) (مرشدة المجموعة) أكرمها الله، وقفت بجانبى، عندما كنت أسمع هذه الأشياء التى تجعلنى أبكى.. وأذهب لآخذ رأيها تقول لى.. الدين ليس هكذا.. وتعطينى كتبًا لأقرأها، ثم دلتنى على معهد الداعيات.. والتحاقى بالمعهد.. كان ثورة فى حياتى.. لأن هؤلاء الناس على علم.. وليس لديهم تشدد فى النظر للأمور.. الدين عبادة ومعاملة.. وفيما عدا ذلك أنت حر فى حياتك. ؟» و«أنا كنت بدرجة أستاذ مساعد.. وجاء موعد تقديم أبحاث الترقية حتى أرقى إلى درجة أستاذ؛ لكنى تأخرت فى تقديمها لمدة سنة كاملة.. هؤلاء الناس أثروا فى.. لم أكن أريد أن أعمل.. كنت أعتقد أن هذا حرام كنت أرى أنه لا فائدة من الترقية مادمت سأجلس فى المنزل فى النهاية».

د. (ن) لا تدرس للنساء فى المسجد.. لكنها ربما تفعل بعد أن تتخرج من معهد الداعيات، وهى الآن تكتفى بالتدريس لزميلاتها فى الكلية. تشرح لهن بعض العبادات البسيطة والأحكام الشرعية، وهى قالت لى إنها فى البداية كانت تستمع للدكتور «عمر عبد الكافى» حيث كان يلقى دروسه فى نادى الصيد، وبعده أصبحت تستمع لـ «عمرو خالد». لكنها تقول إنها كانت تستمع دون تأثر حقيقى. ولكن التأثير الحقيقى كان للحاجة (أ).. لأنها كانت قريبة منى.. وكنت آخذ رأيها فى كل الأشياء.. أنا استمعت لدعاة كثيرين.. لكن التواصل والصداقة شىء آخر. و«أحيانا يكون عندك مشكلة شخصية لا تستطيع أن تقولها حتى لمن هم معك فى المنزل ولكنك تستأمن الداعية لأنه قريب من قلبك».

الدعوة فى نوادى الروتارى!

بشكل أو بآخر سنجد أن مبدأ عدم القطيعة مع ما هو قائم هو الملمح الرئيسى لحركة الدعوة الجديدة فى مصر.. لا قطيعة مع المؤسسات الكبرى.. لا السياسية، ولا الاجتماعية، لا انتقاد من أى نوع للسياسات السائدة لا فى الشكل ولا فى المضمون. وبالتأكيد أيضًا فإنه لا قطيعة مع المؤسسات الاجتماعية بل مزيد من التأييد لها والتكيف معها، وإذا كان الشخص يعتقد أن ثمة خللاً ما فإن عليه أن يتبع سياسة الاستيعاب ثم الإصلاح.. هكذا لم يكن مفاجئًا لى أن تخبرنى د. (وفاء) وهى طبيبة بشرية من المجموعة نفسها بأنها استطاعت إقناع زميلاتها من عضوات نوادى الروتارى بأن يستمعن لمحاضرة تلقيها داعية قديمة عن الحجامة كأسلوب علاج إسلامى، وهكذا تتقارب المسافات فنوادى الروتارى التى بقيت دائمًا فى الخطاب الإسلامى موصومة بأنها ستار للمحافل الماسونية

المُحرمة صارت موضوعًا للدعوة، ربما لم تعرف د. (و) أصلاً بالتهمة التى يتهم بها الإسلاميون نوادى الروتارى، هى أحبت أن تمزج بين عالمين، عالمها القديم والتقليدى. وعالمها الجديد، أما أعضاء الروتارى أنفسهم والذين تعودوا أن يقضوا أمسياتهم الأسبوعية فى عشاء يستضيفون فيه أحد السياسيين، أو أحد نجوم المجتمع من الفنانين أو الكتاب فلم يجدوا ما يمنع من الاستجابة لإلحاح زميلة ظلت تلح طويلاً حتى تقنعهم بأنهم سيكونون سعداء إذا ما فعلوا أمرًا مختلفًا فى هذه المرة. واستضافوا داعية إسلامية بدلاً من الوزراء أحياناً، وبطلات المسلسلات الدرامية فى أحيان أخرى.

د. «وفاء» طبيبة بشرية.. فى منتصف الثلاثينيات ترتدى حجاباً شديد الأناقة. يختلف طرازه عن طرز الحجاب السائدة بين نساء هذه الطبقة..، ربما يكشف عن رغبة أكبر فى إظهار أنوثة محتشمة أو حاسمة، بدت لى متحمسة جدًا.. وقالت لى الداعية الأكبر منها إنها سيكون لها مستقبل كبير فى الدعوة، هى طبيبة بشرية لكنها فى الوقت نفسه طالبة فى معهد إعداد الداعيات.. فى الغالب هى ستكون داعية شهيرة.. لم تكن عضوة فى جماعة سياسية أو دينية.. وغالبًا لن تكون.. تمارس التدين الفردى.. وتجمعها صلات الود بصديقات اخترن نفس طريقتها فى الحياة.. لماذا تريد د. (و) أن تصبح داعية؟ تقول: «أريد أن أتعلم دينى جيدًا، ثم إن الدراسة فى المعهد هى بمثابة سبيل فتحه الله لى.. ومادام الله قد فتح لى هذا الطريق فلابد أن أسلكه.. والمفروض أن هذا هو

(تقصد العلوم الدينية).. العلم الذى أمرنا الله بتعلمه.. بخلاف علوم الدنيا.. لأنك لو نظرت ستجدنا جميعًا مؤهلات عليا، ولكن فى تخصصات مختلفة، ولا واحدة منا تلقت تعليمًا أزهريًا.. فى الأرياف يدخلون الأطفال الأزهر؛ لأن الدراسة فيه مجانية.. أسر متواضعة.. يقول الأب سأدخل ابنى الأزهر حتى يصبح شيخًا عندما يكبر طيب لماذا يُقبل الناس على داعية غير أزهرى ويقولون تعال نسمعه؟ هو يتكلم بصدق لأنه أخذ الدعوة كاختيار. لم يكن له غرض معين».

بقليل من التأمل فى نمط الدعوة الجديد سنجد أن الفكرة المثالية للداعية هى أنه شخص يعتقد أن الله قد هداه للطريق الأصوب فى الحياة، وهو يريد أن يأخذ بيد أصدقائه ومعارفه وأسرته لنفس الطريق، لسببين: أولهما أنه يعتبر أن هذا هو طريق السعادة. وثانيهما أنه سينال أجرًا عظيمًا إذا ما فعل ذلك.. فى التطبيق سنجد أنه وبسبب طبيعة جمهور الظاهرة الجديدة، ودرجة ثرائه ظهر محترفون للدعوة.. وأخذت الظاهرة بعدًا اقتصاديًا.. فى الدعوة الجديدة أيضًا تتغير العلاقة بين الواعظ والمستمع.. فى النمط القديم لا يهدف الواعظ إلى تغيير حياة المستمع حتى لو كان عالمًا متمكنًا، وحتى لو كان تقيًا جدًا هو يهدف لأن يفهمه الحكم الشرعى.. يخبره به. ربما يهدف لأن يصبح الناس أكثر تقوى لكنه لا يهدف لتغيير أنماط حياتهم.

على العكس تمامًا سنجد أن هذا هو بالضبط هدف الداعية الجديد. إذا كان مخلصًا لفكرته.. والداعية المثالى هو الذى ينجح

فى تحويل مستمعيه لدعاة، وهكذا يمكن أن نفهم ظاهرة الانشطار النووى.. فى هذا العالم الذى يتنامى باطراد.. الداعية يقنع الآخرين بأن يتحولوا لدعاة، أو ناشرين للثقافة الدينية.. إلى جانب أعمالهم الأصلية.. والآخرون يقنعون آخرين.. إلخ.. وهكذا دواليك.. والهدف هو الوصول لمجتمع متدين كامل التدين دون مخاطرة الانضمام لجماعة. أو التصدى لما هو سائد.. أو العداء معه.. أو التضحية بالمصالح الاجتماعية.. والاقتصادية فى مقابل فكرة.

إذا عدنا للدكتورة (و) فسنجد أنها لم تكن متدينة منذ البداية.. لم تكن مقتنعة بالحجاب.. كانت على العكس ترى أنه ليس فريضة.. والذى أقنعها بهذا مقالات المستشار محمد سعيد العشماوى التى ينشرها فى مجلة روز اليوسف (قاتلهم الله)! هكذا قالت.. كانت مقتنعة بما يقول.. وتعيش حياتها بشكل عادى.. بل إنها كانت تبالغ فى اتباع الموضة.. وهكذا صبغت شعرها ذات يوم بألوان غريبة.. الأخضر.. والفوشيا.. لتفاجئها طفلتها بسؤال استنكارى.. «إيه ده يا ماما»؟! تقول إنها أحست بالحرج.. وقررت أن تقف وقفة مع نفسها.. لكنها اتخذت قرارها بارتداء الحجاب وهى فى العمرة رأت رؤية شاهدت فيها نفسها وهى ترتدى الحجاب.. وقد كان.

بشكل عام.. ومن كثرة ما ترددت قصص الرؤى هذه.. وبالذات على لسان الفنانات المعتزلات والنساء اللاتى ينتقلن من عالم..

لعالم آخر مضاد بشكل عام فإن فكرة الرؤى هذه عادة ما تقابل بنوع من السخرية التى تشى بأن قائلتها تمارس نوعًا من الادعاء. وأنا أرى أن المسألة ليست كذلك بالضبط.. فهناك أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية تدفع الناس لأن يختاروا هذا النمط من الحياة، ولأن كل الناس ليس مطلوبًا منهم أن يكونوا على وعى تام بكل ما يدور حولهم.. أو حتى يعتمل داخل نفوسهم من مشاعر وأفكار؛ لذلك تظهر قصص الرؤى هذه . وهى تظهر غالبًا حين يعجز الناس عن الإجابة على سؤال.. لماذا ينتقلون من نمط حياتهم العادى إلى ذلك النمط التطهرى، أو ما الذى كان موجودًا فى الحياة القديمة ويستحق التطهر.. منه؟.

الخوف من الموت

كان من النماذج التى لفتت نظرى من بين مجموعة الداعيات السيدة «لمياء».. وهى لم تتجاوز النصف الأول من العشرينيات. علمت قبل أن أتعرف عليها أن والدها مسئول كبير طرح اسمه أكثر من مرة كمرشح لرئاسة الوزراء، عرفتنى الداعية الكبيرة بها.. بعد أن نطقت لى اسمها ثلاثيًا.. كانت تنطقه بنوع من الفخر، قالت لى إنها سيكون لها مستقبل كبير فى عالم الدعوة. عندما بدأنا الحديث كان من السهل علىَّ أن أخمن لماذا؟ كان حديثها عاطفيًا جدًا.. ونبرات صوتها مؤثرة، هى خريجة كلية السياسة والاقتصاد.. لا تعمل. ولم تعمل منذ تخرجها.. ترتدى حجابًا أنيقاً ينسجم مع ملامح وجه دقيقة وجذابة. لماذا لم تعمل الفتاة دارسة السياسة.. رغم أن أباها مسئول سياسى كبير؟.. تجيب: «تزوجت بعد أن انتهيت من الدراسة مباشرة.. وسافرت للأردن مع زوجى..

دبلوماسى فى سفارتنا هناك.. لم أكن أريد أن أعمل.. لأنى أحب أن يكون عملى موافقًا لظروف عمل زوجى.. وأحب أن أعمل أعمالا اجتماعية تطوعية، لا أحب أن أكون موظفة. ولا أقول إن هذا هو الصحيح ولكن هذه شخصيتى أنا.. ربما أكون ضعيفة! أو ليس لدى طاقة زائدة. أنا صريحة.. ولا أحب الهروب وعندما كنت أسأل نفسى هل أنت فى الجنة.. أو فى النار؟ كنت أقول لنفسى طبعًا فى النار! وهل هناك شخص لا يصلى يدخل الجنة».

لماذا تعتقد الفتاة الصغيرة، والزوجة الطيبة أنها ستدخل النار ما لم تفعل المزيد. هل هذا نتاج ثقافة التخويف السائدة فى المجتمع منذ سنين؟ هل ينطبق على هذا النموذج ذلك التفسير الكلاسيكى الذى يفسر دائمًا إقبال الأغنياء على التدين بأنه نوع من أنواع التطهر، حسنًا، التفسير السائد والكلاسيكى يقول بأن الأثرياء يرتكبون مخالفات أخلاقية ودينية حتى يكونوا أغنياء، وهم يستغلون الناس، ومن أجل أن يطهروا أنفسهم يقومون ببعض مظاهر التدين الشكلى فيما يشبه نوعًا من أنواع غسيل الشخصية، أو غسيل السيرة أو السمعة، حسنًا ولكن ماذا لو كان الأثرياء لم يرتكبوا كل ما يجب ارتكابه من أجل جمع الثروة؟. ماذا لو أنهم حصلوا عليها عن طريق النشأة والوراثة مثلاً؟ وماذا لو أنهم حصلوا معها على تربية أخلاقية محافظة؟ أعتقد أن هذا فى بعض الأحيان يؤدى إلى إحساس مجانى بالذنب.. هذا الإحساس هو الذى يدفع المرء إلى مزيد من محاولة الإجابة على الأسئلة عن جدوى الحياة، وفى ضوء حالة التصحر الثقافى والتى تؤدى إلى

تجفيف كافة روافد المعرفة المخالفة لما هو سائد.. فى ضوء هذه الحالة تختفى فكرة التصورات المختلفة عن العالم. ولا يبقى سوى تصور واحد يلجأ إليه أولئك الذين يداهمهم لسبب أو لآخر سؤال عن جدوى الحياة. هكذا إذن كان علىّ أن أواصل الاستماع: «أنا لم أكن أصلى.. لكن كان هناك أشياء طيبة داخل قلبى. ولم أكن أحب أن أؤذى أحدا.. حتى حدثت حالة وفاة.. مات زوج خالتى. فحزنت من أجل خالتى وكيف يتركها زوجها. ولكن أمى قالت لى: لا تحزنى لأن خالتك عندها (إيمان).. وهذه الكلمة صدمتنى سألت نفسى ما الإيمان؟ ولماذا هو شىء لا نراه؟. ظللت لمدة أسبوع وأنا خائفة أن يموت زوجى أنا أيضًا! وكنت أسأل نفسى كيف سأواجه الحياة. بعد هذه الحادثة بأسبوع توفى شاب آخر.. كان جميلاً وشابًا.. بدأت أفكر أن المسألة ليست أن يموت أحد من معارفى، المسألة أنه ربما أموت أنا.. حسبت أن هذا هو الوقت الذى اختاره الله لهدايتى.. قررت أن أستغنى عن ملابسى وارتديت الحجاب».

بالنسبة لأبناء الشرائح العليا من الطبقة الوسطى، أولئك الذين يمتلكون ما لا يسهل التضحية به.. من حياة مستقرة.. إلى أصول ثابتة للثروة.. فإن فكرة التدين الفردى.. وجهاد الشخص مع نفسه كبديل لفكرة الواجب الجهادى العام الذى كان يشيع حتى فترة قريبة تبدو مناسبة أكثر، هكذا سنفهم لماذا طالع الداعية الأشهر «عمرو خالد» جماهيره العريضة برأى مفاده أن القدس لن تتحرر إلا عندما يصبح عدد من يصلون الفجر فى المسجد مساويًا لعدد

من يصلون الجمعة.. وإلا عندما يجاهد المسلمون خطاياهم الشخصية. وهى فكرة تتردد كثيرًا فى خطاب الدعاة الجدد.. ومفادها أنه فيما يخص القضايا العامة مثل احتلال فلسطين والعراق.. والعدوان على المسلمين فإن على كل مسلم أن يركز على تنمية ذاته وقدراته الشخصية.. سواء الدينية أو الدنيوية.. بدلاً من الانخراط فى أنشطة جماعية هدفها التعبير عن الغضب.. أو إعلان قوة الجماهير المسلمة.. أو التظاهر. فكرة الإيمان الفردى هذه تبدو مناقضة تمامًا، لفكرة الجهاد الأممى الذى ينطلق من قاعدة فقهية تقول إن الجهاد بمعناه المباشر والقتالى يصبح فرض عين. شىء لابد من تنفيذه. على كل مسلم فى حالة احتلال العدو لبلاد المسلمين. هذه القاعدة التى قادت آلاف الشبان من مختلف الدول الإسلامية للسفر لجبال أفغانستان لمقاومة التدخل السوفيتى هناك فى إطار الأممية الجهادية الإسلامية، وهى التى قادت أيضًا فيما بعد إلى ظهور الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين.. على يد الشيخ «أسامة بن لادن».. هذا التصور تراجع تمامًا وأصبحت فكرة الجهاد مع النفس هى السائدة.. وللمرة الأولى أصبح الدعاة ذوو الشعبية الكبيرة يردعون جماهيرهم عن التظاهر.. والحقيقة أن هذا ليس موقفًا أخلاقيًا يمكن أن نتهم فيه الدعاة بمهادنة السلطة بحثًا عن مكاسب مباشرة.. ربما يكون الأمر كذلك. لكن النظرة الأعمق تكشف أن كلاً من الدعاة والجماهير التى تقبل عليهم ينتمون إلى شرائح ونخب اجتماعية مستفيدة اقتصاديًا من الوضع الحالى. وهى جزء منه ومن ثم فإنه لا مصلحة لها فى

تغـيـيره.. ولا الصـدام معـه، ولا فى الضغط على أعصـابه المتعـبة بتظاهرات مـفـاجـئـة.. وربما تكون الحـقـيـقـة الأهـم.. هى أن هذا النمط من الدعـوة حـريص على المد فى عـمـر النظام الاجـتـمـاعى والاقتصادى والسياسى القـائم عبـر إضفاء مسـحة دينيـة وأخلاقية على مـا هو مـوجـود بالفـعل. هكذا كـان علىّ أن أتـأمل السيـدة (ل) وهى تقـول لى «عندما اندلعت الانتفاضـة منذ سنتين قلت لنفسى.. الفلسطينيـون يجاهدون بأنفسـهم.. ولكن بماذا سأجاهد أنا؟ قررت أن أجاهد عن طريق حفظ القرآن.. قلت يا ربى سأجاهد بالقرآن. وكما يجاهد الفلسطينيون فى بيوت مهدمة، وأطفال يموتون، وطعام غيـر مـوجـود ومـأسـاة. قلت أنا سـأجـاهـد فـى القـرآن.. بدأت أجلس فى مسجد النادى. وتعرفت على المجموعة».

الفصل الرابع

الإعجازيون!
الطب البديل.. والدعوة البديلة

لعل أحد أبرز ملامح تلك الظاهرة التى تنمو بسرعة كرة الثلج، وتتشكل ملامحها على غير مثال سابق. والتى يمكن تسميتها اصطلاحًا بالدعوة الجديدة، هو ذلك الربط الوثيق بين أدوات وملامح الحداثة فى إطارها الخارجى، وبين أدوات ونتائج العولمة على المستوى الاتصالى والمعرفى، وبين المضمون التراثى القائم على فكرة الاستدعاء من الماضى دون أى اجتهاد حقيقى أو حتى دون شبهة اجتهاد بحيث تصبح الصيغة القائمة أقرب لفكرة وضع المضمون القديم فى إطار حديث دون محاولة للنظر فيه هو نفسه وفقًا للمستجدات ، وهو ما يناقض تمامًا فكرة الاجتهاد التى تقوم فى أساسها على إعمال العقل ومحاولة المواءمة بين التراث وبين

مستجدات العصر. وهكذا يمكن وعلى سبيل المثال أن نفهم كيف تم إحياء أسلوب مثل العلاج بالحجامة. كنوع من أنواع الطب الإسلامى تماشيًا مع صيحات العودة للطب البديل والتكميلى والتى تنتشر فى العالم كله، وهكذا يوضع المضمون القديم فى الأطر الحديثة.. وهى هنا عشرات المواقع على شبكة الإنترنت.. لتكتمل فكرة مضمون قديم فى قالب حديث.. وما بين الإيمان بالحجامة كسنة نبوية. وكعلاج مقدس، وما بين الترويج لها كأسلوب فى الطب البديل مارسه المصريون والصينيون القدماء، وما بين ممارستها كطقس دينى اجتماعى فى الصالونات الإسلامية التى تبدو هى نفسها كطقس يجمع بين القديم والحديث. ما بين كل هذه المتناقضات كلها نستطيع أن نفهم بعض ملامح الدعوة الجديدة فى مصر. هكذا أيضًا يمكن أن نفهم سر إقبال السيدات المرفهات من عضوات الصالونات الإسلامية فى النوادى والبيوت على اعتناق أسلوب الغذاء النبوى والريجيم الإسلامى كأسلوب بديل للريجيم الآخر الذى هو غربى بالضرورة.

وبعيدًا عن الأفكار الأولية التى يمكن أن تداهم المرء وتغريه بالسخرية من أفكار مثل الريجيم الإسلامى، والنظام الغذائى النبوى، أو الإعجاز الطبى النبوى. إلى غير ذلك من الظواهر التى تستقى مضمونها من عادات وممارسات حياتية بسيطة كان الرسول (ﷺ) ومجايلوه يمارسونها، أو نسب لهم فيما بعد أنهم كانوا يمارسونها.. للوهلة الأولى قد تستدعى هذه الظواهر حسًا بالسخرية، أو اتهامًا لهؤلاء الذين يمارسونها بالنصب والدجل

وتزييف الحقائق بحثًا عن رواج معنوى، أو مكسب مادى.. والاثنان يتحققان بوفرة حاليًا لأولئك الذين يتبنون مثل هذا النوع من الخطاب.

وإلى جانب الداعيات النشطات اللاتى يروجن لأفكار مثل الريجيم الإسلامى وأسلوب الغذاء النبوى بين السيدات المرفهات فى صالونات النوادى الكبيرة والبيوت المنعمة فى شوارع الأحياء الراقية، إلى جانب هؤلاء يمكن أن نفتح العدسة قليلاً لنرى أيضًا أولئك الإعجازيين الذين باتوا يتوالدون بمعدل كبير ليطلوا علينا من صفحات الصحف الكبرى. وشاشات الفضائيات وأغلفة الكتب والعلب البلاستيكية للشرائط، هؤلاء الذين يرون فى كل آية قرآنية نظرية علمية اكتشفت أو لم تكتشف بعد، وفى كل نصيحة غذائية نصحها الرسول (ﷺ) لأصحابه كشفًا طبيًا.. ونظرية تتحدى المعامل والتجارب والنتائج العلمية تحديًا مستمرًا.

ولأسباب تخص أعمار الدعاة الإعجازيين والفئات التى يتوجهون إليها فقد فضلت أن أستثنيهم من الحديث عن ظاهرة الدعاة الجدد. لكن الظاهرة الإعجازية أطلت لى برأسها بشدة وأنا أبحث فى ظاهرة الداعيات السيدات.. وصالونات البيوت الإسلامية، فإلى جانب الموضوعات الاجتماعية مثل: الحب، وتربية الأطفال.. والعلاقة بين الزوجين فى الإسلام.. بدا أن موضوعات مثل الريجيم الإسلامى، ودور الوضوء فى تقوية الجهاز المناعى.. والطب النبوى ونظام التغذية الإسلامى والعلاج بالحجامة تحتل المساحة الأكبر فى دروس الصالونات النسائية، ثم بدا الأمر وكأنه أكثر تشابكًا من

هذا، فالإعجازيون الذين استبعدتهم من الدراسة بسبب اختلافهم عمريًا عن الدعاة الجدد. اتضح أنهم يقيمون وزنًا لفارق العمر هذا؛ لذلك يلعبون دور الأساتذة الكبار الذين يقدمون المادة العلمية الإعجازية للدعاة والداعيات اللاتى يصبح عليهن بعد هذا أن يصغن الاكتشافات الإعجازية بطريقة جذابة وأن ينقلنها للآلاف من المراهقات.. والمراهقين وربات البيوت، هكذا كان علىَّ بعد أن استبعدت د. عبد الباسط محمد من متن ما أكتبه أن أطالع اسمه كأستاذ وكمرشد إعجازى فى كثير من الحوارات التى أجريتها مع الداعيات، وإذا جئنا للداعية الأكثر شهرة فى مجال الإعجاز العلمى فى القرآن وهو د. زغلول النجار الذى يقدم نفسه كعالم جيولوجى سنجد أنه لا يملك جماهيرية شاب مثل «عمرو خالد» ولا قدرته على التأثير. وبسبب صعوبة المضمون الذى يطرحه من الناحية الشكلية على الأقل، وبسبب سنوات عمره، التى تخطت الستين، وربما أيضًا بسبب الهجوم عليه من علماء المؤسسة التقليدية الذين يعارضون ما يقوم به إخلاصًا لفكرة ثبات النص.. لكل هذه الأسباب نستطيع أن نقول إن داعية الإعجاز لا يملك جماهيرية الدعاة الشبان.. لكنه يملك ما هو أكثر من هذا، والواقع يقول إن ما يقال عن الإعجاز العلمى فى القرآن تحول لما يشبه أيقونة مقدسة.. لا يهتم أحد باكتشاف ما فيها بقدر ما يهتم الجميع بالحفاظ عليها كما هى. وإذا صح ما كتبه المفكر حسين أحمد أمين فى مقالة بجريدة الحياة اللندنية (*) فإن عدد جريدة الأهرام الذى يصدر

(*) يوليو ٢٠٠٤ .

فى يوم الاثنين ليحمل مقالة لأحد كبار المروجين للخطاب الإعجازى هو أكثر أعداد الأسبوع توزيعًا ومن ثم جلبًا للإعلانات. وقد ذكرت الواقعة ضمن رواية عن خلاف دار بين أعضاء مجلس إدارة المؤسسة حول نشر المقالات الإعجازية التى تتصدر صفحة كاملة، وقد بدأ الخلاف حين قال كاتب كبير إنه لا يجوز أن تنشر الصحيفة الكبيرة والرصينة مثل هذه المقالات المشكوك فى صحتها العلمية، والتى يعارض ما جاء فيها بعض رموز المؤسسة الدينية فى مصر. ليحتج عليه مسئولو الإعلانات قائلين: إن العدد الذى تنشر فيه المقالة هو الأكثر جلبًا للإعلانات التى تتحول إلى مكافآت وحوافز يحصل عليها عمال المؤسسة وصحفيوها، وواصلوا قائلين: إنه إذا كان الكاتب الكبير يريد رفع مقالة الداعية الإعجازى فإن عليه أن يتكفل بتوفير المبالغ المالية اللازمة لدفع حوافز ومكافآت العاملين.. القصة منشورة.. والأسماء تكاد تكون معروفة وواضحة، ولا يهمنى فى القصة سوى الدلالة التى تؤكد أن الخطاب الدينى وبالتحديد ذلك الخطاب الذى يقدمه الدعاة الجدد تحول إلى طرف فى معادلة السوق، حين تستقوى الأطراف ببعضها البعض وتدخل فى علاقات تحالف وتعضيد مشترك. وفى قصة بسيطة المبنى عميقة الدلالة مثل التى ذكرتها قبل سطور نستطيع أن نخمن دون أن نبذل الكثير من الجهد أن رجل الإعلانات الذى تصدى للدفاع عن نشر مقالات الإعجاز.. ليس بالضرورة معجبًا بها.. ربما هو لا يقرؤها من الأساس.. هو لم يدافع عن مضمونها.. هو قدم منطقه.. المقالات تجتذب أكبر كمية من الإعلانات.. إنه الدين فى

خدمة التسويق، والتسويق فى خدمة الدين. يمكننا هنا أيضًا أن نعود إلى الداعية الأشهر «عمرو خالد» لنتذكر أن محطة L.B.C اللبنانية المدعومة من رجال الكتائب المسيحية فى لبنان.. تحمست لإعادة بث حلقات برنامجه عبر شاشتها.. كانت تلك رغبة الشركة الإعلانية التى تتعامل معها القناة، وكانت غزارة إعلانات الزيوت والصابون وكافة السلع الاستهلاكية المصاحبة للحلقات كفيلة بتقديم التفسير. لم يكن فى الأمر صفقات.. كانت هناك فقط قوة السوق.. وهى كفيلة بفرض داعية مسلم على شاشة يملكها ويديرها مسيحيون.. لكنهم أيضًا رجال أعمال بارعون يهمهم اجتذاب أكبر قدر من الإعلانات الموجهة لمنطقة الخليج. إذا انتهينا من هذه النقطة وعدنا لموضوعنا الأصلى (الدين فى خدمة التسويق والتسويق فى خدمة الدين) يصبح السؤال هو هل تنجذب الإعلانات بشكل غير متعمد وتلقائى تجاه البرامج والجرائد التى تُروج للدعاة الجدد؟ من الناحية الاقتصادية فإنه كلما زاد عدد جمهور وسيلة إعلانية معينة زاد انجذاب الإعلانات لها.. هذا منطقى تمامًا ولا غبار عليه.. ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو: هل كل رءوس الأموال التى تنجذب ناحية البرامج والمقالات التى يكتبها الدعاة تخضع لهذه القاعدة، أم أن هناك جزءًا من الإعلانات يذهب بشكل متعمد كنوع من أنواع الدعم الذى يقدمه رجال الأعمال للدعاة الذين يعجبون بهم، ويرون أن ما يقدمونه وما يقومون به يصب فى صالح المجتمع بشكل عام؟! فإذا كنت رجل أعمال معجبًا بداعية معين فأنت لن تقوم بمظاهرة لتبدى إعجابك

بهذا الداعية، وربما أيضًا فى بعض الحالات ستجد حرجًا من أن تتصل اتصالاً مباشرًا بالسلطة لتطلب له بعض المميزات مثل إتاحة فرص أفضل فى وسائل الإعلام.. أو عدم المنع من الخطابة مثلاً.. هذه مسألة محرجة ستؤدى لتصنيفك وفق التصنيفات القديمة (متعاطف مع الإسلام السياسى).. أنت لست كذلك. أنت رجل أعمال محافظ أخلاقيًا ترى فيما يقوله هؤلاء الدعاة شيئًا جيدًا جداً، هم يمجدون الثروة ويشجعون على اقتناء الأموال والنجاح فى العمل ويدعون إلى استقرار الأوضاع.. فى هذه الحالة فإن أفضل طريقة لدعم هؤلاء الدعاة هى الدعم المادى.. سواء بالهبات المباشرة أو عن طريق الإعلانات.

انتصار مجانى

إذا انتهينا من الجملة الاستطرادية الطويلة حول (تسويق الدين وتديين التسوق). وعدنا لفكرة الاتجاه للبحث عن دلائل لأفكار الإعجاز العلمى والطبى فى القرآن والسنة، سنجد أنها تلقى رواجًا أكبر بين مرتادات الصالونات الإسلامية النسائية، وبين الداعيات اللاتى يتولين الوعظ وإلقاء الدروس فى ذلك النوع من الصالونات.. وأعتقد أن لذلك الشيوع أسباب عامة تنطبق على المجتمع كله، وأسباب خاصة تجعل الفكرة أكثر رواجًا لدى نساء الصالون المرفهات. وعلى المستوى الأعمق سنجد أن الفكرة ذات علاقة وثيقة بالعلاقة الجدلية مع الغرب.. ذلك الإحساس بالعداء والنقص الذى ينتاب المسلمين المخلصين الذين يحنون لما يعتبرونه سنوات المجد الإسلامى الغابر.. هؤلاء الذين يسألون أنفسهم بماذا يتفوق علينا الغرب؟ فى الغالب فإن أصحاب هذه الذهنية لا

يجيبون على السؤال (بماذا يتفوق علينا الغرب) هم يجيبون على سؤال آخر هو (لماذا؟) نعم (لماذا يتفوق علينا الغرب؟).. ويجيبون.. لأننا تركنا ديننا.. إجابة مريحة.. لكن السؤال بماذا يتفوق علينا الغرب؟ يعود ليحاصرهم لتكون الإجابة المنطقية: بالعلوم والاكتشافات العلمية والديمقراطية.. حسنًا لماذا لا نجيب على السؤالين فى آن لماذا وبماذا. ونقول إننا إذا عدنا للقرآن سنجد فيه كل الاكتشافات العلمية بدءًا من كروية الأرض وحتى سر اكتشاف المصباح الكهربائى، فضلاً عن علاجات الأمراض المستعصية وأسرار الجيولوجيا. وتكتمل المعادلة حين يسود خطاب يؤكد بأن الغرب منحل أخلاقيًا.. وأن الأسر فيه مفككة، ومعدلات الانتحار هناك هى الأعلى فى العالم والرجال فيه بلا نخوة. ولا كرامة، والنساء منحلات ومُستغلات جسديًا.. أما الديمقراطية الكافرة فهى لم تنجز شيئًا عبر كل هذه القرون سوى أنها أباحت الشذوذ الجنسى.. هذا عن القيم، أما إذا جئنا للعلوم والاكتشافات العلمية فقد سبق إليها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا.. وهو يضم كل الأسرار العلمية سواء التى اكتشفها العلماء فى الغرب أو لم يكتشفوها بعد، أما الأسرار التى يعجز البشر ـ بسبب ضيق عقولهم ـ عن اكتشافها فى القرآن الكريم فسنجدها مبسوطة فى السنة النبوية المطهرة التى اختصت لسبب غير معروف بالإعجاز الطبى حتى إن بعض الأحاديث النبوية توصلت لعدد العضلات فى جسم الإنسان منذ أربعة عشر قرنًا. فى حديث ظل متناقضًا مع الحقائق العلمية الثابتة حتى أذن الله بنصره حيث تم اكتشاف عشر

عضلات كانت مختفية فى الأذن الوسطى للإنسان ليتم الله نوره ويتطابق عدد العضلات التى ذكرها الحديث الشريف - غير الموثوق في صحته - مع عدد العضلات المذكورة فى الموسوعات الطبية.. وعلى حد ما أخبرنى د. عبد الباسط محمد وهو أستاذ فيزياء حيوية سافر منذ سنوات طويلة للسعودية ليشارك فى تأسيس المجمع العلمى للقرآن والسنة.. وكما قال لى فقد قام هناك بأبحاث كثيرة لإثبات فائدة ثمرة التمر فى علاج أمراض السرطان، والكبد! هل نحن بحاجة إلى القول بأن أفكار الإعجاز العلمى هذه قد انبثقت من باطن الأرض الحبلى بالبترول، وبأن الفكرة تبدو ملائمة تمامًا للمجتمعات الريعية.

المهم أن د. عبد المعطى عالم وداعية فى الوقت نفسه وقد قابلته فى شتاء ٢٠٠٢ فى عيادة فاخرة تقع على مقربة خطوات من نادى الصيد الراقى الذى يرأس الداعية الإعجازى اللجنة الدينية فيه. ويتولى من خلالها اختيار الدعاة والداعيات الذين يلقون الدروس فى مسجد نادى الصيد بعد وقف «عمرو خالد». لكنه هو أيضًا سرعان ما تم منعه من الخطابة عقب مقال نشرته مجلة روزاليوسف تنتقد فيه خطبة الجمعة التى خصصها للحديث عن دور الحبة السوداء فى علاج مرض السرطان. د. عبد المعطى قصة فى حد ذاته له موسوعة مسجلة على شرائط كاسيت فاخرة بعنوان (الطب النبوى) وقد أصدر فيما بعد سلسلة كتب ملونة تحمل العنوان ذاته، ثم اتسعت اهتماماته فيما بعد لتطول المنهج الإسلامى فى تربية الأطفال، وهو استقر فى مصر بعد سنوات

طويلة فى السعودية اكتشف خلالها ـ على حد حواره معى ـ اكتشافات علمية مهمة صاغها فى نظريات طبية، ولعل أهمها تلك النظرية التى تقول إن العَرقَ البشرى يصلح كدواء شاف لفقدان البصر، وهو بالطبع قد استوحى النظرية من الآيات القرآنية التى وردت فى سورة يوسف وروت كيف شفى نبى الله يعقوب من العمى الذى أصابه جراء الحزن على فقده لابنه يوسف عليه السلام.. وكيف شفى من العمى بعد أن ألقى أبناؤه على وجهه بقميص يوسف. فقد اكتشف د. عبد المعطى السر.. فليس فى الأمر معجزة رغم أن بطلى القصة من الأنبياء (يوسف ويعقوب عليهما السلام) لكن السر يكمن فى العرق الذى كان فى القميص وهكذا تحولت الآية إلى نظرية علمية مثبتة بالتجارب، ولدى د. عبد المعطى المزيد، فإلى جانب الحبة السوداء والتمر، كاشفنى د. عبد المعطى بأنه يجرى الآن أبحاثًا حول السنا.. والسنوت،.. لأن الرسول (ﷺ) قال فى حديث شريف: (عليكم بالسنا والسنوت) دعك من مدى صحة الحديث ولكن ما هو السنا والسنوت؟ يجيبنى د. عبد المعطى بطريقة من يكشف سرًا خطيرًا (إنه حب الشمر).

د. عبد المعطى يقسم مجموعته إلى ثلاث مجموعات تعنى أولاها بالعلاجات المباشرة التى يقول إن الرسول (ﷺ) أوصى بها أصحابه، أما المجموعة الثانية فهى الصفات التشريحية للجسم البشرى من خلال مجموعة من الأحاديث والقصص المنسوبة للسيرة النبوية والتى يؤكد من خلالها د. عبد المعطى أن الرسول (ﷺ) كان على معرفة كاملة بأدق تفاصيل تشريح الجسد البشرى

مثل عدد العضلات والخلايا.. إلخ، أما الجزء الثالث فيتحدث عن النظام الغذائى للرسول (ﷺ) من خلال شرح الوجبات التي كان الرسول (ﷺ) يتناولها وكيف أن البروتينات تتوازن فيها مع الكربوهيدرات وسائر المكونات الأخرى.. وقد لفت نظرى الجزء الذى خصصه الداعية الإعجازى للحديث عن الفوائد الطبية للحم الثريد الذى كان الرسول (ﷺ) يتناوله ظهرًا.. بعد أن يتناول كوبًا من عسل النحل المخفف بالماء فى الصباح، ثم سبع تمرات مع كوب لبن فى الضحى.. ورغم أن الباحث ليس معنيًا بتفنيد الأخطاء العلمية ولا الفقهية فى خطاب الداعية موضوع البحث إلا أنى كمسلم عادى أسأل متى كان الرسول (ﷺ) يتبع هذا النظام؟ هل قبل الهجرة ؟ هل بعدها ؟ وما مدى صحة ما خبرته السيدة عائشة عن (أنه كان يمر علينا الشهر ولا يوقد فى بيتنا نار) فى إشارة لفقر المأكل وعدم وجود اللحم.

الانتصار على الغرب بالإعجاز!

بخلاف الإطار الفكرى العام الذى يبرر ذيوع الأفكار والمواد الإعجازية (نحن أفضل من الغرب ونسبقه فى كل ما وصل إليه).. وبخلاف العوامل المساعدة مثل التشجيع على نشر الأفكار الإعجازية من قبل جهات معينة فى الدول النفطية الريعية، مثل رصد الأموال الضخمة لإجراء ما يعتقد أنه بحوث علمية لإثبات صحة الافتراضات والنظريات التى يضعها أصحاب الأفكار الإعجازية بخلاف هذا.. وذاك فإن ثمة مبررًا آخر بدا لى أنه وراء شيوع موضوعات من قبيل الإعجاز العلمى فى الوضوء، والعلاج بالحجامة، والريجيم الإسلامى.. فى دروس الصالونات النسائية الإسلامية.. هذا المبرر هو أنه فى خطاب الدعوة الجديدة بشكل عام فإنه لابد من وجود إطار جذاب.. ومادة يمكن أن يبيعها الداعية للمستمع الذى سنجد أن عقده غير المعلن مع الداعية أو

الواعظ الذى يستمع إليه ينص على أنه سيتلقى عظة دينية ويتسلى فى آنٍ واحد. والتسلية هنا تعنى أنه سيستمتع بما يسمع بدءًا من أسلوبٍ الداعية الجذاب، إلى الموضوعات المليئة بالقص المسلى أو بالمعارف الجديدة التى تجارى أحدث الموضات الفكرية والاجتماعية التى يمكن أن يشغف بها رجال ونساء هذه الشرائح العليا من الطبقة الوسطى. (النساء خاصة) وهكذا سنرى مثلاً أنه فى الوقت الذى يتصاعد فيه الاهتمام على مستوى العالم كله بنظم طبية وغذائية وصحية مخالفة للنسق السائد حاليًا فى الحضارة الغربية. ومع تصاعد الاهتمام (بالمايكروبيوتك) مثلاً كنظام صحى وغذائى مستوحى من الحضارات الشرقية القديمة، وبينما تتحول المعالجة اللبنانية «مريم نور» إلى نجمة فى فضائيات وصالونات وقصور النخبة لتشرح لهم طريقة الحياة الجديدة على أرضية غير دينية. فى الوقت نفسه، ربما متأخرًا قليلاً، تظهر صيحة المايكروبيوتك الإسلامى على يد د. «ماجدة عامر» وهى داعية إسلامية وأستاذة فى الطب الغربى والبديل فى آن كما سنرى بعد قليل، وفى الوقت الذى يبدو فيه من الطبيعىٍ أن تكون نظم الريجيم، وأساليب تقليل الوزن، والحفاظ على رشاقة الجسم هى الشغل الشاغل للنساء المرفهات والمحافظات أيضًا المتنقلات بين حدائق النادى وجدران المنزل فى انتظار من لا يأتى إلا فى المساء.. فى الوقت نفسه تظهر صيحات الريجيم الإسلامى المستقى من قصص عن أسلوب غذاء الرسول والصحابة.. لتكون موضوعًا جذابًا تتعلم منه المتدينات الجدد كيف يكن مسلمات صالحات

ويلتزمن دينيًا ويحافظن على رشاقة أجسادهن فى آن. وإلى جوار هذا وذاك ستجد داعيات من طراز مختلف.. مثل مصممات الأزياء الإسلامية. وهناك أيضًا مخرجات الأفراح الإسلامية والتى تقام فى قاعات الفنادق ذات الخمس نجوم بعد أن يتم تقسيم القاعة لقسمين (رجال ونساء) ويستبدل المطربون القدامى بفرق من المنشدين (الرجال) والمغنيات الإسلاميات تستعمل الألحان نفسها والآلات الموسيقية مع حذف كلمات الأغانى القديمة واستبدالها بكلمات أخرى مبهجة تتحدث عن جمال العروس ووسامة العريس.. وضرورة بناء البيت المسلم.. وهو ما يضمن الحفاظ على رفاهة الحياة القديمة والعادات نفسها بعد وضعها فى إطار أخلاقى محافظ يمكن أن يضخ المزيد من المشروعية والثقة والأمل فى غد أفضل فى عروق الطبقة التى تطاردها أزمة اللامشروع على المستوى الفكرى، وأزمة اللادور على المستوى السياسى، وتطارد بعض شرائحها كوابيس الانهيار الطبقى والأخلاقى جراء الأزمة الاقتصادية الطاحنة، ومن ثم تلجأ إلى الله باعتباره خيرًا حافظًا ومعينًا، وإلى الدعاة الذين يتحدثون باسم الله باعتبارهم الوحيدين الذين يمنحون البشارة بغد أفضل.

فإذا كان الحال كذلك فليس غريبًا أن ينبرى أشخاص عاديون من الشرائح المأزومة نفسها للأخذ بيد أبناء طبقتهم مبتكرين ومجتهدين ومؤلفين ومستفيدين، وصاعدين ومخلصين، وغير مخلصين كل حسب حالته؛ ولأن الجمهور المستهدف ليس هو

جمهور الفقراء والهامشيين الذين يعيشون فى الحواف الجغرافية والاقتصادية للمدن، هذا الجمهور الذى كانت تستهدفه الجماعات السلفية والجماعات الراديكالية العنيفة فى السبعينيات، هذا الجمهور الذى كان محرومًا من مباهج الحياة بالفعل كان يسهل إقناع رجاله بأن الجلباب خير من الملابس الغربية التى هو محروم منها بالفعل. ويسهل إقناع نسائه بأن الخمار البسيط موحد اللون أفضل من التبرج الذى يستدعى نفقات لا طاقة لهن بها؛ وبأن الأعشاب التى تباع أمام أبواب المساجد فيها كل الشفاء كبديل عن الأدوية ونظم العلاج الغربى، التى هو محروم منها بالفعل بعد تقلص دور الدولة الاجتماعى، هذا الجمهور من الهامشيين والفقراء والراغبين فى الانضمام إليهم من أبناء الطبقات الأخرى الرومانسيين والباحثين عن معنى للحياة.. كان أيضًا يسهل إقناعه بأن تراث السلف فى الحكم السياسى خير لهم من الديمقراطية التى هم أيضًا محرومون منها بالفعل.

لكن مع جمهور الدعوة الجديدة من المهنيين ورجال الأعمال والمتيسرين ماديًا،لابد أن يختلف الأمر كثيرًا. هؤلاء أناس ذاقوا مباهج الحياة، وعرفوا رفاهة العيش.. وهم على استعداد لقبول تدين يضيف إليهم ولا يخصم منهم، يمنحهم ولا يحرمهم، هؤلاء يريدون تدينًا لهم.. لا عليهم.. وهكذا يختفى كتاب (الزهد) ذو الأوراق الصفراء، والذى يروى قصص تقشف كبار الصحابة والتابعين والذى كان أحد الكتب الأساسية التى يجرى تعميمها على الملتزمين الجدد. يختفى الزهد ككتاب وكقيمة وتظهر عشرات

القصص عن أثرياء الصحابة الذين أفادوا الدعوة بأموالهم كما لم يفعل أحد، وتظهر قصص أخرى عن أناقة التابعين وطيب ملبسهم ومشربهم وكيف أن طيب حال دنياهم لم يمنعهم من الانشغال بآخرتهم.

أما إذا عدنا لمضمون الدعوة الجديدة.. وإذ تأملنا فى كل هذا الركام من المحاضرات والدروس وشرائط الكاسيت والفيديو وبرامج الفضائيات ومواقع الإنترنت. إذا تأملنا فى هذه الظاهرة التى تنمو ككرة الثلج.. سنجد أن الفكرة الأساسية لها هى (تديين ما هو حديث) وليس (تحديث ما هو دينى)، والفارق لو تعلمون ـ كبير. وهكذا فى إطار فكرة تديين مظاهر الحداثة هذه ستجد أن كل شىء يمكن أن يطلق عليه صفة إسلامى (الفرح الإسلامى والريجيم الإسلامى وعروض الأزياء الإسلامية.. والموسيقى كذلك) على المستوى المباشر يبدو فى الأمر نوع من الحس التجارى.. الرغبة فى ترويج سلعة عادية بإضفاء صبغة مقدسة عليها.. لكنَّ مزيدًا من التأمل يكشف عما هو أعمق.. كما أسلفنا.

الحجامة سنة نبوية.. وموضة نسائية

فى ضــوء كل مـا تقـدم.. بدا لى مـن الطبـيـعى أن تنتـشـر فى الأوسـاط التى سبق ذكرها صـرعة العـلاج بالحـجـامـة.. والحـجـامـة هى أسلوب من أسـاليب الطب العـربى القـديم تعـتـمـد فكرته على فصد الدم الفـاسـد من الأمـاكن المريضـة وإتاحـة الفـرصـة لتكوّن دمٍ جـديدٍ، هذه الصـرعـة الطبـيـة بدأت بشكل عـادى تمـامـاً.. على يدٍ معـالجة شعبية سـورية تعرفها سيدات المجتمع المصرى باسم «آمنة القديرى». وهى بدورها ليست داعية؛ ولكنها معالجة شعبية أعادت إحياء الأسلوب القديم والذى كـان مستخدمًا قبل ظهورها فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى، وبحسب ما فهمت من إحدى تلميذاتها والتى أجـريت معـهـا حـوارًا مطولاً سنعـرض له بعد قليل؛ فقد لاقى إحـيـاء الأسلوب القـديم هـوى شـديدًا فى الأوسـاط الطبـيـة فى المجتمع السـورى الذى مازال يجنح لكل ما هو عربى فى مـواجهة كل

ما هو غربى، وساعد على ذلك أن مناهج الطب فى سوريا تدرس بالعربية. وهكذا جاءت الحاجة «آمنة» إلى مصر وفى صحبتها كتاب فاخر يربو عدد صفحاته على ألف صفحة.. يفترض فيها أنها شهادات من علماء وأساتذة فى الطب.. كلهم أجروا تجاربًا وأبحاثًا أكدت صحة أسلوب الحجامة وفوائدها فى شفاء الأمراض.. وإن لم يخنى التقدير فإن ما ورد فى هذه القصة بالغ الدلالة.. فقد جاءت الحجامة إلى مصر كأسلوب من أساليب الطب الشعبى فازدهرت فيها كطقس إسلامى مدعمة بحديث نبوى يقول: «شفاء أمتى فى ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، ولسعة نار».. المحجم هو المشرط المستخدم فى فصد الدم الفاسد.. ودخلت الحجامة إلى مصر كأسلوب عربى قديم؛ فازدهرت فيها كسنة نبوية لجأ الآلاف من المهنيين والمتعلمين ذوى الدخول المرتفعة، والمراكز الاجتماعية المتميزة إلى العلاج بها بحثًا عن راحة النفس.. والجسد، وأذكر أنى فى غضون عام ٢٠٠١ كنت فى زيارة عمل لإعلامية شهيرة تلقت تعليمها فى الغرب.. ولسبب لا أذكره تحدثت الإعلامية الغربية عن السيدة الشهيرة التى تعالج نساء المجتمع المخملى بالحجامة. وعندما احتاجت مزيدًا من التفاصيل اتصلت بصديقتها النجمة السينمائية الشهيرة لتسألها؛ لكن تلك بدورها أحالتها لصديقة ثالثة لا تقل لمعانًا.. ولفت نظرى أن الأسلوب العلاجى الذى كان يستخدمه السلفيون المتزمتون والذين كانوا يعادون الطب الغربى تقريبًا.. انتقل لسيدات المجتمع المخملى، وقد فهمت من مضيفتى أن الظاهرة منتشرة بين السيدات انتشارًا

كبيرًا.. وكان مبرر الحديث هو أنها ترى أن المسألة تحولت لظاهرة اجتماعية (كانت تتحدث عن نساء طبقتها) ينبغى معالجتها إعلاميًا، بعدها كان علينا أن نستقبل الحجامة كطقس دعوى.. ومن ناحية أخرى كان علينا من آن لآخر أن نقرأ أخبارًا عن إغلاق وزارة الصحة لعيادات أطباء هجروا الطب الغربى الذى تعلموا مناهجه وانتقلوا للعلاج بالحجامة. من بين هؤلاء كانت السيدة «ماجدة عامر» وهى أشهر داعيات الصالون الإسلامى فى مصر. د. «ماجدة» داعية وطبيبة فى آن واحد.. فهى داعية؛ لأنها حصلت على ليسانس كلية الشريعة الإسلامية، وهى طبيبة؛ لأنها أستاذة تحاليل فى كلية الطب بجامعة عين شمس د. «ماجدة» حاصلة فى الوقت نفسه على شهادة جامعية فى مجال الطب البديل. وسنعرف فيما بعد أنها دمجت بين التخصصات الثلاثة (الطب. والطب البديل. والدعوة) لتخرج بما يمكن أن نسميه الطب البديل الإسلامى، وعلينا أن ننتبه إلى أن د. «ماجدة» داعية شهيرة لها جمهور كبير من السيدات.. كن يتابعن دروسها فى مسجد أبى بكر الصديق بحى هليوبوليس الراقى والذى يمكن أن نعتبره بحق جامعة الدعوة الجديدة فى مصر.

وعلى حد تعريف محرر جريدة البيان الإماراتية(*) فى حوار أجرته معها ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٢ . فإن د. «ماجدة» تتقن اللغتين الفرنسية والإنجليزية وهى تمارس الدعوة منذ سنوات وتحاول

(*) البيان الإماراتية، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٢.

الربط بين العلم والدين وهى أيضاً تركز على جوانب الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية، كما أنها مهتمة بإيضاح حقائق الإسلام والرد على الشبهات التى تثار ضده». وكما تروى د. «ماجدة» عن نفسها فإن بدايتها فى الدعوة كانت غريبة إلى حد ما.. «فهى تلقت تعليمًا غربيًا فى المدارس الفرنسية.. وهى لم تكتف فقط بعدم إجادة اللغة العربية لكنها كانت تحتقرها. لكن التحول جاء بعد أن سافرت إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه فى الطب.. حيث استفزها الهجوم على الإسلام فى فرنسا، ورغم أنها كانت غير ملتزمة دينيًا.. ولا ترتدى الحجاب.. إلا أنها قررت أن تحفظ القرآن؛ رغم أنها لم تكن تعرف اللغة العربية بشكل كامل».

هكذا سنجد أن د. «ماجدة» لا تختلف عن غيرها من الدعاة والداعيات الجدد حيث تنطبق عليها نفس المعايير فهى أستاذة جامعية وطبيبة ناجحة، قررت أن تتلقى تعليمها الدينى بطريقتها الخاصة.. وبالطبع من خارج المؤسسة الدينية التقليدية. وهى تواصل رواية قصتها قائلة: «إنها مثل كل زملائها وزميلاتها فى مجال الدعوة الجديدة التحقت بمعهد إعداد الداعيات لمدة سنتين. كما واصلت تعلم اللغة العربية بطريقة جيدة.. بعدها التحقت بكلية الشريعة فى جامعة الأزهر.. فى نفس الوقت الذى كانت تدرس فيه الطب البديل فى جامعة بريطانية» بعد أن انتهت من دراسة المجالين.. ماذا كانت النتيجة؟ هى تقول إنها شعرت بالفراغ.. وبدأت تسلك طريق الدعوة.. وماذا أيضًا بعد دراسة الشريعة والطب البديل؟ هى تجيب: «أنعم الله علىّ بالمزج بين الدين والطب

البديل.. وألفت كتابين.. الأول بعنوان (الجوارح وأسرار الوضوء). والثانى هو (العين وغض البصر) والكتابان أخذا منى مجهودًا كبيرًا. وفى الوقت نفسه كنت أدرس فى المسجد وأعالج المرضى».. ثم «هكذا جمعت بين أكثر من دور.. الدعوة والتدريس فى الجامعة، وصاحبة معمل تحاليل.. وأعالج بالطب البديل». د. «ماجدة» أيضًا لها موقع على شبكة الإنترنت تقوم فكرته ـ من وجهة ـ نظرها.. على الرد على الشبهات التى تثار ضد الإسلام بأسلوب علمى.. حيث تهدف لتوضيح مواطن الإعجاز العلمى فى الممارسات الإسلامية للغربيين.. من خلال أفكار مبتكرة مثل: اكتشافها بأن الوضوء يقوى الجهاز المناعى للإنسان.. وأن غض البصر.. أو الامتناع عن النظر لما حرم الله يلعب دورًا كبيرًا فى تقوية الأبصار.. وتعتقد د. «ماجدة» أن هذا هو ما يميزها عن غيرها فى مجال الدعوة بصفة عامة» ـ لا سيما أن «الأدلة العلمية هى لغة العصر ولن تنجح الدعوة بدونها». ولكن لماذا ظهرت الداعيات السيدات .. وما الذى تستطيع المرأة تقديمه للدعوة؟ تجيب د. «ماجدة» فى الحوار نفسه، «المرأة تستطيع تقديم الكثير للدعوة فهى تخاطب الأمهات اللاتى يربين الأجيال ويعددن النشء وإذا صلح حال الأم وعرفت شئون دينها صلحت الأسرة والمجتمع.. والداعية النسائية دورها أن توجه النساء اللاتى يحضرن دروسها نحو كيفية التعامل مع أزواجهن».

ولكن ما الذى تقدمه الداعية لجمهورها من النساء.. ولماذا؟

هى تُعلم النسـاء الدين؛ لأنهن لا يتـعلمنه فى المدارس أمـا الطريقة فهى طرح القضايا الفقهية مع إدخال التفسيرات العلمية للدين إلى جانب ما يمكن تسميته بفقه المرأة أو فقه الأسرة مثل قضايا الزواج والطلاق (وهى أكثر الموضوعات شيوعًا فى خطاب الدعوة الجديدة).

لكن د. «ماجدة» تتميز بمنهج جديد بالنسبة للنساء وهو الربط بين العلم والإيمان، وإلى جانب الموضوعات الفقهية التقليدية فهى تدعو النساء للقيام بممارسات والتحلى بصفات يوصى بها الطب البديل ولا تتعارض مع الإسلام فيما يمكن تسميته مجازًا بالطب البديل الإسلامى، ثم (اليوجا الإسلامية)، ثم المايكروبيوتك الإسلامى.. حيث توصى الداعية النساء بأهمية التفكير الإيجابى، والرضا.. والعفو.. والصفح.. وهى كلها مزايا خلقية لها تأثير إيجابى على جسم الإنسان علميًا، ورغم أن هذه النصائح وغيرها هى أساس العديد من الفلسفات والنزعات التأملية الشرقية الهندية والصينية التى أعاد الغرب اكتشافها بحثًا عن مزيد من التنوع للحضارة الإنسانية ذات الطابع الغربى إلا أن د. «ماجدة» تمزجها بالطب النبوى.. «حيث تقارن بين نظام الغذاء النبوى وبين النظم الغذائية فى الطب البديل».

ورغم انفتاح د. «ماجدة» على الثقافات الغربية والشرقية واهتمامها بالبحث عما يوافق الإسلام فيها لتقديمها لجمهورها من السيدات كممارسات مسلية ومفيدة وإعجازية فى الوقت نفسه إلا أن الأمر ليس كذلك على المستوى الاجتماعى فهى بخلاف بعض

الداعيات وعالمات الفقه اللاتى يرفعن شعار أن الإسلام هو دين المساواة بين الرجل والمرأة.. ترى أن «المطالبة بالمساواة غير جائزة شرعًا.. وجميع الديانات وليس فقط الإسلام، تقول إن الرجل هو رئيس الأسرة، والمسئول عنها لاسيما أن الهرمونات تتغير فى جسد المرأة مع الدورة الشهرية وهو ما يجعلها غير مسئولة عن اتخاذ القرارات، أما الرجل فلا.. من جهة أخرى سنجد أن نسبة الهيموجلوبين فى دم الرجل أعلى منها فى دم الأنثى».

من بين عشرات النماذج من الداعيات اللاتى يمارسن الدعوة فى نطاق التجمعات النسائية فى مساجد الأحياء الراقية والنوادى ودروس البيوت كانت تلك النماذج التى تقدم ما هو دنيوى إلى جانب ما هو دينى أكثر لفتًا للنظر.. وكاد تكرارها يشى بأنها تكاد تشكل ظاهرة موازية لظاهرة الداعيات الأشهر واللاتى ينتمين بشكل أو بآخر لمشروع الإسلام السياسى ويشغلن أنفسهن بقضايا فقه النساء فى المقام الأول ثم بقضايا التربية الاجتماعية والعلاقات الأسرية وتربية الأبناء وفق مفهوم إسلامى.

أما إذا عدنا لما يمكن تسميته تجاوزًا بداعيات الطب البديل.. فقد كان نموذجى الثانى بعد الداعية د. «ماجدة عامر».. هو السيدة «أشجان».. وهى تشغل منصب المدير التنفيذى لإحدى أكبر الجمعيات النسائية الإسلامية التى تضم فى عضويتها عددًا من الداعيات والناشطات الإسلاميات فى المجال الاجتماعى.. وإلى جانب دورها فى إدارة الجمعية فإن السيدة «أشجان» هى داعية معينة فى وزارة الأوقاف بعد أن درست فى معهد إعداد الداعيات

لمدة سنتين. وبالرغم من أنها ـ وفق حوارها معى ـ درست الزراعة بالأساس وحصلت على شهادتها الجامعية فى العام ١٩٨٢ إلا أنها تبدى اهتمامًا خاصًا بالحجامة كإحدى طرق الطب البديل أولاً، وكسنة نبوية ثانية.. وهى تساعد من يلجئون إليها طلبًا للعلاج بالحجامة التى تعلمتها من خبيرة حجامة سورية استطاعت أن تنشر الاهتمام بالأسلوب البدائى القديم فى الأوساط النسائية الراقية، وقد شاهدت السيدة «أشجان» فى عدة برامج تليفزيونية وهى تشرح فكرة العلاج بالحجامة كأحد طرق الطب البديل، وقد أجريت معها حوارًا مسجلاً كان يشغلنى وأنا أجريه أمران.. أولهما أن أرصد لحظة التحول فى حياة امرأة مصرية من الطبقة الوسطى، ودوافعها لأن تتسلح بمزيد من الثقافة الدينية لتتحول من ربة منزل إلى داعية وفى حين كان الهدف الثانى من الحوار هو الإلمام بجوانب فكرة الطب الإسلامى البديل ورصد مدى قوة أو ضعف علاقتها بفكرة العولمة.. وتمازج الحضارات من خلال إعادة إحياء بعض جوانب الثقافات الأصلية مثل أساليب الطب الشعبى القديم وبعض الفلسفات الخاصة بصياغة أسلوب مناسب للحياة. ثم مدى علاقة ثورة الاتصالات وسهولتها بمدى شيوع هذه الأفكار.

فبالنسبة لأسلوب علاج مثل الحجامة فسنجد أنه خرج من الكتب التراثية الصفراء ليحتل أربعة آلاف موقع على شبكة الإنترنت (على حد تصريحات المعالجين بالحجامة). وبالنسبة لنظام غذائى مثل الماكروبيوتك سنجد أنه خلال سنوات تحول من نظام غذائى وروحى صينى لا يكاد عدد من يعرفونه فى الوطن

العربى يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، إلى صرعة شهيرة بعد أن بدأت الفضائية اللبنانية A.N.N فى إذاعة حلقات يومية لداعية المايكروبيوتك السيدة «مريم نور».. التى قالت بدورها أنها تعلمت الأسلوب الصينى القديم فى أحد جامعات الولايات المتحدة الأمريكية. «مريم نور» ليست داعية بالمعنى الذى تحدثنا عنه.. خطابها ليس إسلاميًا من الأساس.. لكن ثمة تشابها مع فكرة إحياء الطب البديل فى إطار إسلامى.

السيدة «أشجان».. فى بداية الأربعينيات من عمرها.. وهى تقول إن حياتها بدأت فى التغير بعد سنوات طويلة من الحياة العادية أدت فيها رسالتها كزوجة وأم. فى المرحلة الجديدة أحست أنها في حاجة لأن تتثقف دينيًا فبدأت بالقراءات الحرة فى السيرة والفقه.. هى فى الأساس مهندسة زراعية لكنها كانت تشارك زوجها فى إدارة شركة سياحة مملوكة لهما منذ عام ١٩٨٢. وهى كانت متدينة من الأساس وترتدى الحجاب قبل أن ينتشر بهذه الدرجة الكبيرة.

فى المرحلة الجديدة اهتدت السيدة «أشجان» لمعهد إعداد الداعيات، فى العام الأول كانت فقط سعيدة بما تتعلمه لكنها فى العام الثانى من الدراسة أحست أن ما تعلمته هو بمثابة رسالة لابد أن توصلها لمن حولها: الزوج، الأبناء، الصديقات كانت الميزة الأساسية لهذه الدراسة أنها تبعدها عن الانخراط فى علاقات مع النساء التافهات، بعد سنتين من الدراسة حصلت السيدة «أشجان» على سنة تدريب تعلمت فيها كيف تتحول لداعية، بعدها أصبحت

واعظة فى وزارة الأوقاف وتدرس فى أحد المساجد يومين فى الأسبوع وتحصل على راتب شهرى بسيط من وزارة الأوقاف.

وهى ترى أن ازدياد عدد النساء اللاتى يردن أن يصبحن داعيات هو بمثابة (خير) من الله سبحانه وتعالى؛ لأن المعاهد التى تعلم النساء الدعوة لم تكن موجودة من الأساس ولكن الفكرة أن من يدرسن بها يخبرن الأخريات عنها.. وهذا هو ـ من وجهة نظرها ـ سبب الإقبال الشديد على هذه المراكز. كما أن هناك سيدات اخترن أن يدرسن فى الجامعة الأمريكية الإسلامية وهى تُدَرِّس نفس ما تدرسه معاهد إعداد الدعاة التابعة للأوقاف.. فى مقابل مصاريف خاصة.

● ملحوظة: فى الحقيقة أن هناك جامعتين أمريكيتين تحملان أسمًا متشابهًا وتلعبان الدور نفسه. إحداهما تحمل اسم الجامعة الأمريكية الإسلامية، والثانية هى الجامعة الإسلامية الأمريكية ويدير الأولى د. «صلاح سلطان»، والثانية د. «صلاح الصاوى» والاثنان من أساتذة الشريعة.. وكما فهمت من الداعية «صفوت حجازى» والذى كان يدرس فى الجامعة الأمريكية الإسلامية فإن أساتذة الأزهر يتولون تدريس نفس المناهج الأزهرية لطلبة الجامعتين الخاصتين تطبيقًا لبروتوكول تعاون مع الأزهر، وفى رأيى أن الجامعتين الخاصتين اللتين تحصلان على مقابل للدراسة بالمراسلة قيمته ٤٠ دولارًا لكل ساعة تعليم.. تشكلان فى حد ذاتهما إحدى ظواهر الدعوة الجديدة فى مصر والتى تكونت بشكل تلقائى ومرتب فى آنٍ من مراكز متعددة.. دعاة وشركات كاسيت.

وقنوات فضائية ومواقع إنترنت وكتب ودور نشر ثم جامعات.. تهدف كلها إلى إنهاء احتكار الدولة للخطاب الدينى من خلال سيطرتها على المؤسسات الدينية الراسخة والتقليدية: الأزهر، ومساجد الأوقاف. وهى فكرة تبدو متسقة تمامًا مع تنامى الاتجاه نحو اقتصاد السوق.. وسياسات إعادة الهيكلة والخصخصة التى كان من الطبيعى أن تمتد من المجالات الصناعية، والتجارية لتشمل المجالات الدينية والثقافية أيضًا.. ويبدو من المهم هنا أن أفتح أقواسًا داخل الأقواس لأشير لمركز الساقية الثقافى الذى هو أول مركز يقدم الخدمة الثقافية مقابل نقود يدفعها الراغبون فى الحصول على هذه الخدمة. والمركز ذو الدور الثقافى المهم مملوك لرجل أعمال ذى ميل إسلامى واضح هو «محمد عبد المنعم الصاوى» نجل وزير الإعلام المصرى الأسبق «عبد المنعم الصاوى».. وهو صيغة تبدو فى حاجة للتأمل حيث يجمع بشكل واضح بين الثقافة والأعمال الاقتصادية والتدين.. وفى عام ١٩٩٨ كان «محمد الصاوى» من أوائل من قدموا الداعية «عمرو خالد» للرأى العام وقتها عبر صيغة ترفيهية دينية سياحية.. حيث استأجر خيمة رمضانية فى أحد فنادق الخمس نجوم.. وفى الوقت الذى كانت الخيام الرمضانية تنتشر كصيغة ترفيهية مناسبة لشهر رمضان.. أو كملاهٍ ليلية مستترة تراعى تقاليد شهر رمضان ويسهر فيها الفنانون ونجوم المجتمع، قدم «الصاوى» صيغة موازية تحت اسم خيمة الإيمان التى كانت تذكرة دخولها وقتها تفوق تذاكر دخول الخيام الترفيهية.. وقدم فيها الداعية «عمرو خالد» ضمن برنامج

كان يشمل (بوفيه) سحور.. (وبوفيه) حلويات شرقية رمضانية مميز. وكانت الفكرة هى أن يستمتع الجمهور بدرس دينى من داعية ذى قبول وأن يتناولوا سحورهم.. مقابل ثمن التذكرة. وأعتقد أن هذا كان أول إرهاص لفكرة خصخصة الدعوة. ودفع ثمن مادى فى مقابل الخدمة الدينية، وفيما بعد ازدهر مركز الساقية كمركز ثقافى يقدم خدمة ثقافية متميزة فى مقابل تذاكر يدفعها الجمهور وتقوم إحدى شركات المحمول المملوكة لرجل أعمال قبطى هو نجيب ساويرس برعاية أنشطته من خلال صفقات إعلانية.. وعلى مدار سنوات ظل المركز يفتح نافذة لعشرات من الفرق الموسيقية والمسرحية وفق صيغة خاصة به؛ فرجل الأعمال الملتحى يسمح بتقديم الموسيقى والغناء لكنه لا يسمح للجمهور من الشباب والشابات بالرقص على إيقاع الموسيقى، وهو أيضًا يحرم التدخين داخل أسواره تمامًا حتى فى المناطق المفتوحة فى حين تتنوع أمسياته من الحفلات الموسيقية حينًا إلى المحاضرات التى يلقيها بعض شباب الدعاة فى أحيان أخرى، ومن اللقاءات مع بعض الأدباء والمفكرين حينًا إلى أمسيات الإنشاد الدينى. وقد بدا لافتًا لى أن أرى تهافت الشباب والشابات ممن تتروح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين على حجز تذاكر ليحضروا أمسية للشاعر الكبير «أحمد فؤاد نجم».. يلقى فيها قصائده الثورية القديمة.. تلك التى كان يقفز فوق أسوار الجامعة فى السبعينيات مع رفيقه «الشيخ إمام» ليشعل بها ثورة الطلاب المتمردين والمطالبين بالحرب وفق سياق منافٍ تمامًا.. أعتقد أن

أساسه أيضًا كان البعد الرسالى للقصيدة وهو ما كان يتسم به أيضاً أولئك الذين نشطوا لقيادة الحركة الإسلامية فى السبعينيات، لكن المشهد الآن بدا متداخلاً بشكل لا يملك معه أحد سوى التأمل ومحاولة التحليل.

وإذا أقفلنا أقواس الاستطراد الطويل وعدنا لفكرة ممارسة الطب البديل وفق صيغة إسلامية سنجد أن السيدة «أشجان» ترى أن الحجامة ليس لها علاقة بظهور الإسلام. وبالشرع الإسلامى.. بل إن قدماء المصريين كانوا يمارسون العلاج بهذه الطريقة التى يعود عمرها إلى خمسة آلاف سنة، أما فى العصر الحالى فسنجد أن المسلمين ليسوا أول من عاد للحجامة وإنما هم أخذوها من ألمانيا.. والدنمارك. كنوع من أنواع الطب البديل.. رغم أنهم ليس لهم أية علاقة بالإسلام.. ولكن ماذا نفعل؟ قدرنا أن نزحف وراء الزاحفين! أخذنا الحجامة بعد أن قالوا فى فرنسا وأمريكا إن هذا علم متميز.. وكما أن هناك ٣٢ ولاية أمريكية بها مراكز للعلاج بالحجامة.

وتضيف الداعية أنه نتيجة لعقدة الخواجة فقد اتجه الجميع لهذا العلم.. ومن أجل أن ينشروه.. ويقنعوا الناس به.. أسندوه للسنة النبوية.. وبالطبع الرسول (ﷺ) احتجم.. وهذا وارد فى البخارى ومسلم.. والرسول (ﷺ) قال: (إن أحسن ما تداويتم به الحجامة)، وقال أيضًا: (دواء أمتى فى ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار.. وأنهى عن الكى).. كما أنه (ﷺ) قال: (ما مررت

على ملك من الملائكة ليلة أسرى بى.. إلا وقال يا محمد.. :مر أمتك بالحجامة). وهذه كلها أحاديث صحيحة».

و"الثابت فى السنة أن الرسول (ﷺ) احتجم كثيرًا من أجل التخلص من الصداع"، ومرة عندما أصيب فى قدمه، ثم وهو خارج للحج حتى ترتفع مناعته» وهذه الوقائع كلها بمثابة سنة فعلية ما إذا جئنا للسنة القولية فقد تعرضنا لها وذكرنا أحاديث الحجامة و«نحن كمسلمين نحب أن نعدد النيات فيمكن أن نقوم بالحجامة كسُنة وكنوع من الطب البديل.. الناس يقدمون عليها كنوع من الطب البديل القادم من أمريكا.. وفى نفس الوقت يقتدون بسنه الرسول (ﷺ)". «الحجامة أسلوب غير مؤذٍ والناس يلجئون لها بعد أن يفشل الطب العادى.. وهناك مثلاً د. «عمر فاروق» وهو أستاذ فى القلب وحاصل على الدكتوراه من فرنسا.. وهو قام بتطبيق الحجامة على أربعمائة حالة مستعصية.. وأتت بنتائج إيجابية.. ما المانع إذن أن يعالج بالحجامة، وهناك د. «ماجدة عامر» وقد أغلقوا لها عيادتها، وهناك د. «أمير صالح» وهو هاجر من مصر واستقر فى السعودية وهو يقدم برامج هائلة عن العلاج بالحجامة فى القنوات الفضائية ولكن فى مصر أغلقوا له عيادته.

أسأل السيدة «أشجان» عن بداية علاقتها بالحجامة فتجيب: المسألة بدأت من سوريا رجل علامة هو محمد أمين شبل.. وهم فى سوريا أجروا تجارب خطيرة وهناك سبعة عشر أستاذًا فى الطب أجروا فى معاملهم تجارب أثبتت نجاح العلاج بالحجامة.. وكان هناك سيدة سورية فاضلة هى «آمنة القديرى».. «هذه السيدة

جاءت لمصر على أمل أن تنشر الحجامة.. وبالفعل جزاها الله كل خير هى نجحت فى نشرها.. كانت زميلة معنا فى معهد إعداد الداعيات. وكانت ترافق ابن شقيقها الذى يدرس الطب فى مصر».

«الحجامة ليس لها أية علاقة بالدعوة ولا بمعهد إعداد الداعيات.. الحجامة علم وأنا جئت بكتب الحجامة، ودخلت على مواقع الحجامة على شبكة الإنترنت ووجدت أن هناك حجامة فى ألمانيا».

خاتمة

بعد هذه الصفحات يبقى أن الخاتمة ليست خاتمة فعلية فظاهرة الدعوة الجديدة، مازالت فى حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل والتنبؤ العلمى باحتمالات المستقبل.. وعبر أربع سنوات درست فيها الظاهرة، وتابعتها.. أعترف أننى لم أكن باحثًا جيدًا. فى الحقيقة فإنى لم أكن باحثًا على الإطلاق؛ لكنى أستطيع أن أدعى أننى كنت مخلصًا. ومحبًا لما أفعل.. عبر سنوات أربع فقدت عشرات التسجيلات لمقابلات مهمة كنت قد أجريتها، وفقدت أصول عشرات المقالات التى كتبتها فى أوقات متفرقة، لم أكن باحثًا جيدًا لكننى كنت مُهتمًا..

ولم يكن أمامى فى النهاية سوى أن أضع ما ألح علىَّ من أفكار.. وما استطعت إنقاذه من أوراق فى هذا الكتاب المتواضع. ولعل علىَّ أيضًا وأنا أكتب خاتمة هذا الكتاب.. أن أنبه إلى أن الخاتمة ليست

سـوى بداية، فـخطاب الدعـوة الجـديدة يتطور بين يوم وآخـر.. والظاهرة تنمو ككرة الثلج.. وقد لفت نظرى وأنا أنتهى من تجهيز هذا الكتـاب أن ثمـة تطورًا هائلاً فى خطاب داعيـة مثل «عـمرو خـالد» بات يتـحدث بشكل يومى عن منهج الإصـلاح فى مـجاراة مهمة ومطلوبة لخطابات وأحاديث الإصلاح فى المنطقة العربية! فيما اتخذت حركته شكلاً مؤسسيًا.. يحمل اسم برنامجه الذائع «صناع الحياة» لنجد أنفسنا فى النهاية أمام مؤسسة ضخمة من مؤسسات المجتمع المدنى قد تعمل وفق الأطر الشرعية وتتبنى خطابًا إسلاميًا إصلاحيًا متوافقًا مع اقتصاديات السوق ودعاوى الإصلاح الديمقراطى التى تتزايد فى المنطقة. وفى الوقت الذى تبدو فيه جماعة ضخمة وقديمة وكبيرة مثل الإخوان المسلمين مصابة بكل أمراض الشيخوخة ومميزاتها أيضًا فى الوقت الذى يقف فيه قادة الجماعة حائرين بين ركوب القطار الأمريكى.. أو عقد الصفقات مع النظم الموجودة، فإن الحركات الاجتماعية التى تستقطب الشباب على أرضية الدعوة الجديدة تبدو وكأنها تستعد لكتابة فصول مهمة فى كتاب المستقبل وهو ما يستحق دراسة أخرى.. واحتشادًا يليق بأهمية ما يجرى.

وائل لطفى

القاهرة ٥ مارس ٢٠٠٤

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook. org
E - mail: info @ egyptianbook. org

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٠٩٩ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9790 - 4



إن القراءة كانت ولاتزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك



الثمن ١٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب